المشرق

السنة الخمسون — آذار – نيسان ١٩٥٦

تاريخ الدول السرياني

تأليف أبي الفرج الملطي (تابع)

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

وفي خريف السنة ١٥٦٩ لليونان (١٢٥٨ م) وصل بايجو نوين الى الموصل ولم يعث بضواحيها كثيرًا لان الملك الصالح بن بدر الدين صاحبها كان يومئذ قد عاد من خدمة هولاكو وزُفّت اليه تركان ابنة جلال الدين خوارزمشاه واقامت لديه بزيّ النساء المغوليّات . اما المواصلة فقد انهزموا واختفوا جميعاً ريثما انكشف عنهم بايجو . ثم ان علي بهادر بعدما عبر بايجو دجلة انقلب الى ملطية فاغلق اهلها الابواب ولم يمكنوه من الدخول لانهم سبقوا فحالفوا ركن الدين . (٥٠٠) فحشد جيشاً من الأجاجرة وثمّ حاصر المدينة وأمسى اهاليها في خوف وفي جوع شديد حتى صار قفيز الملح باربعمائة قرش سلطاني والحنطة بسبعين . واشتدّ الجوع والضيق على الاهالي حتى انهم وثبوا في احدى الليالي

وفتحوا ابواب المدينة وادخلوا اليها بهادر واصحابه فاصعد الى منائر الجوامع جماعة ينادون بالامان للعرب والنصارى معاً . وطمأنهم قائلاً : انه يبغي محاكمة الزعماء لا الاهالي . وعند الصباح قبض على مملوك ركن الدين وحبسه واركب شهاب الدين العارض على جحش حقير وطوّفه في ملطية ساخراً ثم قتله . وشد في رقبة المعين ايكدباشي حبلاً وربطه في عنق كلب ومشّاه في الاسواق . ثم قتله . وقتل كذلك قالويان القسيس اليوناني واخويه باسيل ومنوئيل وابنه كيريوري وكانوا من كتبة الديوان وقتل معهم ثلاثة ابناء شهاب ايسو الامراء الاكراد . وبعد هذا كفّ عن القتل واستتب الامن الّا ان الجوع تفاقم جدًا في ملطية وبلدها لان اللصوص التركمان عاثوا فيها واتلفوها . وافضى الامر بالكثيرين الى ان يبيعوا بنيهم وبناتهم في سبيل قوتهم . واخذ بعضهم ينقعون الاحذية العتيقة ويسلقونها ويأكلونها . ورأوا امرأة تشوي ابنها ولما حاكموها أقسمت انها لم تقتله لكنها شوته بعد موته . وشاهدوا كذلك جماعة من النساء قدامهن جثة ممدودة وهنّ يشرحن لحمها ويشوينه ويأكلن .

ولما عرف بهادر انه لن يتمكن من مقاومة (٥٠١) التتر ترك المدينة وهرب يريد السلطان عزّ الدين . وهرب معه حسام جوبان وبرصوما بن اندراوس الذي قُتل فيما بعد في الطريق . وفي اثناء هذا الجوع ثار بعض شبان نصارى من جوباس واقبلوا الى قرية عبرا وجعلوا يغزون ويقتلون اخوتهم النصارى ويدخلون البيوت ويأكلون .

وفي تلك الغضون مرض تاوذورس بن قالويان ملك نيقية في مدينة نيغي ولمّا شعر بدنوّ الاجل استدعى اليه البطريرك ارسانيوس واستودعه تدبير ابنه قالويان وتربيته . لانه كان صغيراً بعد . وكان في خدمته بطريق يقال له ميخائيل باليولوغس وكان يخاف ان يتغلب على المملكة ويستحوذ عليها قسراً . وقد صحّ ذلك . فأمر الملك غاريتوس البطريق ان يذهب الى تسالونيقي ويأتيه بميخائيل موثقاً . فذهب اليه وقال له : اني عارف انك ستكون انت الملك فكن حكيماً وأسلم نفسك اليّ وهلمّ معي الى الملك . فاذا شاهد خضوعك له أطلقك وعظّمك . فامتثل ميخائيل المشورة وسار الى الملك موثقاً ولم يبدِ تشكياً . فصدّقه الملك ورقّ له وأطلقه واقامه شريكاً للبطريرك في تربية الفتى

قالويان . وبعد مدة وجيزة توفي الملك وكان له اخت اسمها كيرايلونيا ولها صهر على ابنتها يقال له موزالون . وهو الذي شيّع الملك الى دير مغنيسيا ولحده في ضريح آبائه . واقام اياماً في ذلك الدير يفاوض حماته اخت الملك المتوفى كي يتولى هو عرش المملكة ويهلك الزعماء الذين يخالفونه . فشعر ميخائيل (٥٠٢) وبقيّة الزعماء بالدسيسة وأمر جماعةً من جند الفرنج ان يقصدوا الدير ويفتكوا بموزالون حيثما هو . فساروا وشاهدوه يصلّي في الكنيسة فذبحوه إرباً إرباً . ثم نادى الزعماء بصوتٍ عالٍ قائلين : فليحيَ ملك اليونان ميخائيل باليولوغس ! فليحيَ اوطوقراطور رومانيا ميخائيل باليولوغس ! ومن هناك ساروا جميعاً الى نيقية واعتقلوا الطفل قالويان وارسلوه فسجنوه في احدى القلاع ، ونفوا البطريرك ارسانيوس الذى عنّفهم على فعلتهم وسجنوه في احدى جزائر بحر البنطس .

ومـا مرّ القليل على جلوس ميخائيل حتى اعتزم ان يزحف الى قسطنطينية وقد بلغه ان ليس عند الملك بغدوين الفرنجي الا القليل من الجنود . فارسل واستقدم اليه نيقيفورس مطران افسس وولّاه البطريركية في غاليبولي بدلًا من ارسانيوس المنفيّ . وارتحل من هناك الى قسطنطينية ولم يتمكن من اخذها لان اهاليها اتفقوا مع الجنود ووقفوا على الاسوار وحاربوه بشدة وبسالة. فتركها وعاد راجعاً خائباً. وبعد مدة وجيزة ثارت فتنة بين تجار الفرنج البنادقة والجنويّين في عكة واتفق الفيزنيّون مع البنادقة . ولمّا سمع البنادقة ساروا من كل الاطراف الى مساعدة رفاقهم وفرغت منهم قسطنطينية كذلك . واحتال ميخائيل حيلةً اخرى بان اشار الى متولّي بعض قلاع الروم ان يتظاهر بالعصيان ويبعث الى بغدوين ليمدّه بالعسكر كي يسلّمه تلك القلعة . فامتثل الامر وخدع بغدوين واطغاه . فارسل اليه (٥٠٣) فرقةً كانت لديه . وعند ذلك تهيأ ميخائيل وبادر الى المدينة وحاصرها . وفاوض بعض الاهالي ففتحوا له ليلًا باباً عتيقاً لم يُفتح منذ عهد قسطنطين الظافر . فدخل اليونان والتحم القتال وتمكن بغدوين من النجاة مع اهل بيته وركب سفينة صغيرة وانهزم الى بلاد الفرنج هكذا عادت قسطنطينية الى اليونان بعدما ظلّت في حوزة الفرنج ثلاثاً وخمسين سنة .

اما نيقيفورس البطريرك الدخيل فلم يعش كثيراً لان المنيّة عاجلته واقام

ميخائيل بدلًا منه ورومانس مطران ادرنة بطريركاً الّا انه ما عتم ان عزله بسبب اعماله الشائنة الملومة . وارسل فاستدعى من المنفى البطريرك ارسانيوس ووعده بان يطلق قالويان ابن الملك من السجن ويولّيه مملكة ابيه سوى قسطنطينية التي احتلها هو بالسيف . فرضي البطريرك ودعا له وعاد الى كرسيّه . غير ان ميخائيل بعدما صالح البطريرك زاد شرًّا فوق شر وبدلًا من ان يُطلق سبيل قالويان ويوليه عرش المملكة ارسل ففقأ عينيه كلتيهما ؛ فسخط البطريرك واستعفى وعاد الى سجنه . فاستدعى الملك يوسف رئيس الدير ونصبه بطريركاً وما زال في منصبه حتى يومنا .

فتح بابل (بغداد)

وفي ايّام الشتاء اذ كانت ملطية متقلّبة في اسوأ الحال انحدر هولاكو ملك الملوك الى بغداد واقبل كذلك بايجو من بلاد الروم . فخرج عساكر بغداد ليبارزوا التتر وعلى رأسهم امير كرديّ يقال له ابن كورار ومملوك الخليفة واسمه الدويتدار الصغير . ومكث (٥٠٤) الفريقان ثلاثة وعشرين يوماً دون ان يحارب احدهما الآخر . ويوم الاربعا ثامن محرّم عام ٦٥٦ وهو العام ١٥٦٩ لليونان زحف اولًا بايجو نوين وجنوده نحو المكان المدعوّ قبر احمد غربي بغداد وتقدّم البغداديون كذلك والتحم القتال بين الفريقين فانكسر فريق بايجو وانتصر البغداديون . وكان الامير سليمان شاه وجنوده متولّين سور بغداد ؛ وعند المساء قال الشيخ ابن كورار للفتى الدويتدار : لقد منحنا الله الآن الغلبة فيجب ان نقصد بيوتنا لنستريح ثم نخرج ثانية للقتال . لكن الدويتدار تجبّر وتكبّر ورفض المشورة ومكثوا جميعاً خارجاً . وكان البغداديون مقيمين في ارض منخفضة فذهب التتر وثغروا ثغرة تفجّرت منها مياه دجلة واغرقت البغداديين في نصف الليل . وجعلوا ينهزمون من وسط المياه وقد تبلّلت قسيّهم وسهامهم واغماد سيوفهم . ولما اصبح الصباح انصبّ عليهم التتر اصحاب هولاكو واستغرقت المعركة حتى الساعة التاسعة من يوم الخميس . فانكسر البغداديون وارتخت عزائمهم وقتل ابن كورار وانهزم الدويتدار الى المدينة .

وعند ذلك اقبل بايجو في جنوده وحلّوا غربي بغداد وحلّ هولاكو في

شرقيها يوم الاثنين ١٣ محرّم وحاصرا المدينة حصارًا شديدًا تجاه دار الخليفة . ولمّا أيس الخليفة المتعصم التاعس الحظّ استدعى ابن العلقمي وزيره ونجم الدين عبد الغنيّ بن درنوس ومارمكيخا الجاثليق وأمرهم ان يـأخذوا ذهبًا كثيرًا وبضائع ملكية وخيولًا عربية وان يُطلقوا سفراء التتر من السجن ويوشحوهم ويسنوا لهم الهدايا الوافرة ويذهبوا معهم الى ملك الملوك ويطلبوا الأمـان له (٥٠٥) ولأبنائه وأهله ويعتذروا له بان مـا جرى انما جرى على يد مشيرين اشرار . وأنّهم ان ظلوا في قيد الحياة أمسوا عبيدًا خاضعين يؤدون له الجزية . ولما سار هؤلاء وأكملوا سفارتهم تبطهم هولاكو ولم يأذن لهم ان يعودوا الى الخليفة وشدّد القتال . وثغر التتر ثغرة كبرى في البرج العجمي ودخلوا المدينة يوم الجمعة ٢٥ محرّم فقاومهم البغداديون وهزموهم ثانية . ثم تقوّى التتر في اليوم التالي اعني يوم السبت واحتلوا الأسوار كلها . فانهزم البغداديون واختفوا في البيوت والسراديب . وخرج في اليوم عينه ابنا الخليفة كلاهما وقصدا هولاكو وتبعهما الخليفة عينه بعد ساعة . فأمر بان يُعتقل واقام حفظة يحرسونه في احدى الخيام مدة سبعة ايام . وتوجّه هولاكو نفسه الى دار الخليفة واطلع على الخزائن والمطامير والذخائر القديمة والحديثة واستولى عليها برمّتها . واستلّ المغول سيوفهم واجهزوا على ربوات من البغداديين يساعدهم خصوصًا الكرج في تلك الملحمة الهائلة .

امّا الجاثليق فجمع النصارى كلهم في كنيسة السوق الثالث وصانهم هناك ولم يلحق أذى باحد منهم . ونقل اغنيـاء العرب اموالهم وامتعتهم الى دار الجاثليق يؤملون النجاة. ولكنهم قُتلوا عن بكرة ابيهم . ولـما اطمأنّ ملك الملوك استدعى اليـه الخليفة المنكود الحظ وحاكمه وقضى عليه بالموت وأمر فجعلوه في غرارة وخاطوها ورفسوه بارجلهم حتى مات . على ان بعض العرب خوّفوا هولاكو بقولهم : إن أريق دم الخليفة على الارض فلن ينزل عليها مطر بل ان جمرات النار تشتعل منه . وانقطعت خلافة بني العبّاس وتضعضعت سائر ممالك العرب (٥٠٦) وتوطّدت مملكة المغول وتعززت في جميع البلاد الخارجية والداخلية .

ثم ان التتر انقلبوا من بغداد وزحفوا الى قلعة اربيل وعوّل الصاحب ابن

صلايا ان يسلّمها لكنّ الاكراد العصاة تهدّدوه فتركهم وانهزم وانضمّ الى التتر . وبعد هذا اقبل بدر الدين لؤلؤ واشترى القلعة وكل ما فيها من التتر بمبلغ سبعين الف دينار . ثم ارتحل التتر وتولّى بدر الدين القلعة واقام فيها الحفظة. وما عتم ان حصّل الامير الكرديّ شرف الدين جلالي امرًا من ملك الملوك وانتزع القلعة منه وطرد الحفظة . وسار مع التتر ليقاتل الاكراد في جولمرك . عندئذ وجّه بدر الدين بعض الاكراد ففتكوا به وهو راقد في خيمته . وتولّى اربيل رجل نصرانيّ اسمه المختصّ وهو اخو الصفيّ سليمان الطبيب الكبير . وخلفه بعد موته ابنه تاج الدين عيسى وكان رجلًا مؤمنًا كريمًا .

وحدث يومئذٍ جوع شديد ووباء قتّال في اطراف بغداد وآثور وما بين النهرين وسورية وبلاد الروم حتى بيع في دمشق فروج لاجل مريض باثني عشر ناصريًا .

الحقبة الحادية عشرة المنتقلة من ملوك العرب الى الملوك الهونيين

هولاكو ملك الملوك واخو منكّا خان الكبير .

بعدما قُتل الخليفة المستعصم ولّى ملك الملوك على بغداد رجلًا يقال له عليّ بهادور . وفي اثناء الحرب ارسل نصارى تكريت الى الجاثليق يطلبون شحنة لحراستهم فلبّى طلبهم . ولما زحف التتر وقتلوا (٥٠٧) زعماء العرب ونهبوا اموالهم احتشد النصارى قاطبة في الكنيسة الخضراء المؤسسة على اسم احودامه وقد احتلّها العرب فلاذوا بها . ومكثوا دون اذى من بدء الصوم حتى احد الشعانين ١٧ آذار ١٥٦٩ (١٢٥٨ م) لليونان . واتفق ان ابن دوري العربيّ اللئيم افترى على النصارى وقال للشحنة : ان العرب قد اخفوا عندهم اموالا طائلة ولم يؤدّوا لك منها شيئًا . فاستفسر الشحنة كبار النصارى فأقرّوا بالحقيقة وأحضروا اليه كلّ الاموال . وارسل الشحنة فأخبر هولاكو ناصدر الحكم بقتل جميع التكريتيين طبقًا لناموس المغول . ووجّه زعيمًا كبيرًا في جيش من التتر فجعلوا يأخذون عشرين فعشرين كأنهم يمضون بهم ليقوّضوا القلعة ويفتكون بهم . وظلّوا كذلك حتى افنوهم قاطبة ولم يفلت الّا الشيخ والعجوز. امّا البنون والبنات فقد استاقوهم جميعًا وأجلوهم . وعاد العرب فانتزعوا

الكنيسة الكبرى من النصارى . ولم يبقَ في تكريت سوى قسيسين كمونيين فقط يقيمان الصلاة في سائر الكنائس مع فئةٍ من النصارى . امّا ابن دوري صاحب الوشاية فقد فتك به بهرام النصرانيّ الذي تولّى شحنة تكريت .

امّا بدر الدين صاحب الموصل فلمّا اطّلع على احتلال هولاكو لبغداد وجّه اليه ابنه الملك الصالح في الف فارس نجدةً له . فلم يقابله هولاكو مقابلة حسنة بل قال له : انكم انتظرتم ريثما تقفون على من يكون المنتصر فتتبعونه . فلو انتصر الخليفة لتبعتموه دوننا . ولمّا عاد الصالح الى الموصل واخبر والده تخوّف ونهض من ساعته واخذ كمّية وافرة جدًّا من الاموال وانطلق بذاته فزار هولاكو وراضاه وعاد مطمئنًّا بعد ما لحقه من الخوف ما لحقه . واستأمن بدر الدين الى هولاكو حتى (٥٠٨) انه صعد الى تخته الملكيّ ووضع في اذنه حلقةً فيها درّة غالية الثمن .

وعلى اثر احتلال بغداد افتكر الاشرف بن الملك الغازي بن العادل الكبير صاحب ميافرقين ان يناهض التتر . وعاق قسيسًا سريانيًّا من بلد بدليس كان قد اتاه من الخان الكبير بالفرمان وطرد كذلك الحكّام التتر من عنده . ثم توجّه الى دمشق وسأل الملك الناصر ان ينجده ليقاتل التتر ويثنيهم عن الزحف الى سورية ويُبعدهم ان امكن من بغداد كذلك . فاستخفّ الملك الناصر برأيه وانقلب عائدًا الى ميافرقين بلدته . وعند ذاك ادركته عساكر المغول واحاطت به عجول باسان وعلى رأسهم اشموط ابن ملك الملوك . وابتنوا سورًا واقاموا ابراجاً وجعلوا يحاربون من الخارج حربًا شديدة ويقابلهم من بالداخل بشدّة اقوى . وظلّت كذلك مدّة سنتين لا يقوى التتر على اخذها . غير انهم بعدما دوّخوا بغداد وحاصروا ميافرقين تتابع الوفود من لدن هولاكو الى الملك الناصر يقولون له ليذهب الى خدمته . لكنّ زعماءه لم يرضوا بذلك . فوجّه ابنه الملك العزيز في تحف وهدايا وافرة في خريف السنة ١٥٧٠ لليونان (١٢٦٩ م) واقام هناك الشتاء كله وعاد في الربيع الى حلب بعد عيد القيامة وقال لابيه : ان ملك الملوك أمرني وقال لي : اننا لم نطلبك انت بل طلبنا اباك . فاذا كان مسالمًا لنا فليأتِ والّا فنحن نسير اليه . فاستمرّ الملك الناصر يعرج على الجنبين لا يتيسر له البقاء خوفاً من التتر ولا الذهاب خوفاً من

زعمائه وعبيده . فبقي متحيّرًا خائفاً مذعورًا .

(٥٠٩) وفي تلك الاثناء سيّر هولاكو في طلب السلطان عز الدين واخيه ركن الدين ليذهبا الى خدمته فاطاعاه ومشيا اليه وأحسن قبولهما . وتقدّم اليهما بان يتولّى عز الدين من قيسارية الى تخوم ارمينية الكبرى وركن الدين من اقسرا حتى ساحل البحر بحدود اليونان . ثم انحدر الاخوان مسرورين مع هولاكو حتى بلغوا ما بين النهرين من هناك عادا الى بلادهما واقام ركن الدين في سبسطية وعزّ الدين في قونية .

وفي هذه المرة زار عز الدين دير مار برصوما ووعد البطريرك ديونيسيوس (١٢٥٢-١٢٦١) وعودا طيّبة . وفي هذه السنة مات بدر الدين صاحب الموصل في ٢٠ تموز وخلفه ابنه الكبير الملك الصالح اسميل وتولّى علاء الدين ولده الوسطاني سنجار وولده الصغير سيف الدين جزيرة قردو .

وفي خريف السنة ٦٥٨ للعرب وهي السنة ١٥٧١ لليونان (١٢٦٠ م) انحدر هولاكو في اربعمائة الف فارس الى بلاد ما بين النهرين ونزل اولاً على حرّان وتسلّمها بالامان ولم يؤذِ اهلها وهكذا تسلّم الرها كذلك . اما اهل سروج فلم يرسلوا ويطلبوا الامان فقتلوا عن اقصاهم . وامر هولاكو فنصب جسرًا على الفرات في ملطية وفي قلعة الروم وفي البيرة وفي قرقيسيا . وعبرت العساكر باسرها الى سورية وعبر كذلك هولاكو مع طوقوز خاتون الملكة المؤمنة المحبة للمسيح .

وحدث قتلٌ كثير في منبج وتفرّقت العساكر على قلعة البيرة وعلى قلعة نجم وقلعة جعبر والرقة وبالس وقُتل (٥١٠) جميع من كان فيها . وأقبل اولاً نفر قليل من العسكر الى قرب حلب وخرج اليهم الملك المعظّم الشيخ ابن صلاح الدين والتقاهم فانكسر وانهزم الى المدينة وسار بعض التتر الى المعرّة واخربوها . وبلغوا الى حماة وتسلّموها بامان وكذلك حمص . اما الملك الناصر فاخذ نساءه وابناءه وعبيده وغادر دمشق الى برّية الكرك والشوبك . وزحف التتر الى دمشق وتسلّموها بامان ولم يلحقوا اذى باحد . اما هولاكو فقد نزل على حلب بنفسه وأمر فابتنوا عليها سورًا يحدق بدائرتها كلّها . وحاربها حرباً عنيفة . وبعد ايام معدودة استحوذ على الاسوار التي بجانب باب العراق ودخل المدينة يوم

احد مدخل صوم نينوى ٢٣ كانون الثاني من تلك السنة . وقُتل فيها اكثر ممن قُتلوا في بغداد .

امّا كنيستنا فقد سبق البعلبكيون فقوّضوا سقفها وكنتُ يومئذٍ انا الحقير مطرانها فلشدّة الخوف خرجت وسرتُ الى خدمة هولاكو وحُبستُ في قلعة نجم . واصبح شعبنا الحلبي دون راعٍ فانطلق اغلبهم الى كنيسة اليونان فهجم عليهم التتر وفتكوا بهم وسبوا بقيّتهم . واخيرًا نهض القسيس تورس الارمنيّ ابن اخي الجاثليق مار قسطنطين واتفق معه الراهب كيورك فقصدا التتر وأعتقا البقيّة الباقية ومضيا بها الى كنيستنا .

وبعدما احتلّ التتر المدينة ضربوا الحرب نحو قلعتها وأخذوها بالامان . ثم توجّه هولاكو الى حارم وسأل اهاليها ان يسلّموا وهو يحلف لهم بانه لن يؤذي احدًا منهم . فلم يطمئنوا الى قوله لسخافة عقلهم مدّعين انه لا دين له ومقرّرين أن يحلف لهم فخر الدين الوالي فيهبطوا ويسلّموا (٥١١) فتقدّم هولاكو اليه فسار اليهم وحلف لهم . حينئذٍ فتحوا ابواب القلعة وانحدروا . وأمر ملك الملوك فقُتلوا بأسرهم رجالًا ونساء وابناء وبناتٍ ورضعانًا ولم يفلت منهم الّا رجلٌ حدّادٌ ارمنيّ . وقتلوا كذلك فخر الدين المذكور لان وليّ الدين بن صفي الدين زعيم حلب ادّعى بانه هو الذي قتل اباه واخوته لانهم لم يسلّموا المدينة . وبعد ما فرغ هولاكو من ذلك كله اقام في فلسطين زعيمًا يقال له كتبوغا ومعه عشرة آلاف فارس . وعاد في الطريق التي قدم بها ووصل الى تلّ باشر وبلغه ان التتر احتلّوا ميافرقين وقبضوا على الملك الاشرف صاحبها واحضروه اليه وهناك فتك به . وولّى عليها رجلًا اميرًا من امراء الاشرف يقال له عبدالله . وحدث فيها جوع فظيع لم يُسمع له مثيل حتى انه لم يبقَ من اهاليها جميعًا سوى مائة نسمة لا غير وقد احتلّها التتر بعد عناء جسيم .

وحكى لي احد اعيان ميافرقين الذي افلت منها افلات الحراك من اتون النار قال : اشتهيت يومًا ان آكل طعامًا من حنطةٍ ولحم بقر مع أهلي فدفعت خمسمائة غرش ناصريّ حتى تمكنت من طبخ قدرٍ واحد كافٍ لجميعنا .

ولما عبر هولاكو الفرات ارسل الى صاحب ماردين لينزل اليه فأبى . فارسل اليه ابنه الملك المظفّر وكان معه هو وبدر الدين صاحب الموصل في حصار حلب

وقال له : اذهب فانصح لوالدك كي ينزل ولا يتمرّد فيهلك . ولما وصل الى ابيه وخاطبه لم يلبِّ طلبهُ بل قيَّده وحبسه عنده . وعند ذلك احاط المغول بماردين وابتدأوا بالقتال (٥١٢) ولولا ان وقع فيها الوباء بسماح الله سبحانه لما تيسَّر لهم ان يأخذوها . فقد مات اغلب اهاليها ومات صاحبها كذلك وعاد ابنه الملك المظفَّر الى هولاكو وسلَّمه القلعة فاكرمه وأحسن اليه واحبَّه جدًّا واستخلفه موضع ابيه .

اما كتبوغا فلم يزل يبحث عن مكان الملك الناصر في البريّة حتى وجَّه اليه الجيش فادركوه وقبضوا عليه واتوا به اليه فسيّره الى ملك الملوك مخفورًا. ولما مثل بين يديه فرح به واكرمه ووعده بان يعيده الى ملكه .

وفي تلك الايام سار من قلعة الروم الى خدمة هولاكو الربّان شمعون القسيس المتوفَّى . فرحَّب به اجمل ترحيب واحبه جميع ابناء الملوك والملكات. واقتنى دورًا ملكية وحدائق وجنائن وحصونًا في مراغة وارزاقًا في بغداد واثور وقبدوقية وفي مراغة بلغ مجموعها في كل سنة خمسة آلاف دينار . وقد تعزّز به شعبنا القليل وحُفظت كنائسنا وتأيدت في كل مكان على يده .

اما قوتوز التركي الذي تولى مصر فلما بلغه ان هولاكو ابتعد عنه وان الملك الناصر قد قُبض عليه وأرسل اليه ولم يبقَ في فلسطين الا كتبوغا بعشرة آلاف فارس حشد جيوش مصر وزحف الى مرج باشان تجاه جبل تابور وقاتل التتر وانتصر عليهم . وقتل كتبوغا واستأسر اولاده وكان ذلك في ٢٧ رمضان من السنة ٦٥٨ للعرب (١٢٥٩ م) . فغضب هولاكو لما بلغه الخبر ونوى ان يستأصل شأفة الدولة العربية وتقدم بقتل الملك الناصر وقتل اخيه الملك الظاهر وجميع مَن معها . وتمّ ذلك يوم الاربعاء (٥١٣) في ٢٠ شوال عام ١٥٧١ لليونان(١٢٦٠ م) في الساعة التاسعة في مخاضة نوشهر والقمر في برج عطارد . ولم يُفلت الا محيي الدين الفلكيّ المنجّم وقد حكى لي يقول : اني لما كنت يوماً لدى الملك الناصر في خيمته استدعاني اليه وسألني عن مولده ووصل اذ ذاك امير من المغول نحو الظهر ومعه نحو خمسين مغوليًّا وخرج الملك الناصر الى لقائهُ فقال له الامير : اننا قد أدبنا اليوم مأدبة لدى ملك الملوك وهو يقول لك ان تحضر انت واخوك واولادك وزعماؤك . فنهض الملك الناصر واخذ معه جماعته

وحشمه وهم نحو عشرين نفراً وركبوا وساروا . وبعد قليل وصل عشرون فارساً الى خيامنا وقالوا : فليحضر الفرسان والكتبة ولا يبقى غير الخدّام ضاربي الخيام والطبّاخين والرعاة . ولما ركبنا مضوا بنا ما بين اودية عميقة وانزلونا حيث كان عظماء المغول وغيرهم ممن كانوا واقفين امامهم . ولما دنونا وجعلوا يحادثوننا وثب المغول حالًا من ورائنا واحتاط كل واحد منهم بواحد منّا . فاشرتُ انا الى الزعماء باني فلكيّ عارف بحركات الكواكب فاستدعوني وأجلسوني وراءهم واستاقوا البقيّة بعيداً وذبحوهم . وقتلوا كذلك الملك الناصر واخاه والزعماء. ولم يقتلوا ابناءه وما برحوا الى هذا اليوم مأسورين. ثم ذهبوا فاحضروا الصغار الباقين في الخيام وأجهزوا عليهم كذلك .

جلوس قوبلاي خان على كرسي مملكة المغول

تمرّد في هذا الزمان ملك من ملوك الصين اعني الخطا او المتزيّن وعصى على المغول . وكان لديه عساكر كثيرة يحكم (٥١٤) فيما قيل على اربعمائة مدينة . فاضطرّ مونككاخان ان يحشد جيوشاً ضخمة ويستعدّ لملتقى ذلك الملك الصينيّ بذاته . واستصحب اخاه قوبلاي الصغير ودخل بلاد الصين الجوّانيّة وترك مكانه اخاه اريغبوكا الاصغر . واتّفق انه في اول الملتقى اصابه سهم ومات . فاخذ اخوه قوبلاي جميع العساكر التتر وخرج من بلاد الصين الداخلية واقام خارجاً في مدينة كبرى تدعى خان باليق واتّفق عظماؤه بان يكون هو الخان . اما اخوه اريغبوكا الصغير فقال انه هو الأَولى بالمملكة مدّعياً بان مونككاخان لما سافر الى الحرب سلّم اليه المملكة في حياته . وحصلت منازعة ومقاومة شديدة بين الاخوين استغرقت سبع عشرة سنة الى ان عجز الاخ الصغير وقبض عليه وانتهى امره . وافضت المملكة الى قوبلاي خان الملك العادل الحكيم المحبّ النصارى وكان يكرم الكتّاب والعلماء والاطباء من جميع الامم .

اما قوتوز فبعد ما قتل كتبوغا استولى على دمشق وعلى حلب وعلى سورية باجمعها واقام في كلّ مدينة حاكماً وكتبة وعاد الى مصر ليحشد الجنود ويعود الى محاربة التتر قاطبة . ولما وصل قريباً من غزة نهض عليه بيبرز المعروف

بالبندقدار الصغير مملوك البندقدار الكبير وقتله . وزحف الى مصر وتسلّمها ولقّبوه الملك الظاهر ركن الدين . وانهزم اليه يومئذٍ صاحب سنجار اعني علاء الدين بن بدر الدين صاحب الموصل نولّاه حلب . وقد شدّد البندقدار على جميع النصارى الذين في سواحل البحر وما برح يضيّق عليهم حتى يومنا . فاحتلّ (٥١٥) جميع قلاعهم ولم يترك لهم الّا عكّة وطرابلس وصور فقط.

وفي السنة التالية وهي السنة ١٥٧٢ لليونان (١٢٦١ م) عاد التتر الى سورية وعلى رأسهم كوكالكي نوين ووصل الى حمص وسبى وقتل . وكان قد انهزم جميع اهل قرى سورية الى حلب فامر كوكالكي ان يخرجوا جميعاً الى ظاهر البلد وينعزل اهل كل مدينة وقرية ويعودوا الى بلادهم . ولما امتثلوا الامر أجهز عليهم قاطبةً ولم يترك منهم الا ابناء حلب فقط . وقال لبقيّتهم : لو كنتم تحبوننا لما انهزمتم من امامنا . وبعد هذا عاد كوكالكي من سورية وعبر الفرات فاقبل المصريون تكرارًا واحتلوا بلاد سورية كلها .

وفي صيف هذه السنة سيّر علاء الدين بن بدر الدين صاحب سنجار رسالة من مصر الى الملك الصالح اخيه صاحب الموصل يعرّفه قوّة المصريين ويشير عليه ان يترك هنيهةً الموصل ويتوجّه الى مصر حتى اذا ما انتصر البندقدار على التتر يملّكه لا الموصل فقط بل بلاد المشرق كلها . ولما كان ذات يوم ابن يونس صاحب بدر الدين لدى الملك الصالح مدّ يده تحت الطنفسة وغافله وخطف الرسالة المذكورة وخرج من عنده وسار الى بعشيقا قريته . وبعد ساعة فتش الصالح عن الرسالة فلم يعثر عليها فعرف انّ ابن يونس قد اخذها . فارسل حالًا عبدين من عبيده في طلبه . ولما وصلا اليه عرف ان قد قضي عليه وانه اذا وقع في قبضة الصالح فسيهلكه . بناء عليه جاد على العبدين بالجائزة واشغلهما بالشرب وقال لهما : كُلا واشربا وتمتّعا في هذا المساء. وعند الصباح نذهب معاً الى الموصل . ولما سكر العبدان نهض ابن يونس ليلًا واخذ أهله وركب وسار الى برطلي وقال للزعيم عبدالله (٦١٦) بن كوشو بلّغ اهلك واهربوا جميعاً لان الصالح مستعدّ ان يقتل النصارى وينهزم الى مصر . فقام كل مَن أمكنه الهرب وانهزموا الى اربيل في ايّام المنصرة . ولما نهض العبدان وقت الصباح ولم يشاهدا ابن يونس تبادر الى ظنّهما انه سبقهما الى الموصل فعادا واخبرا

الصالح . فتخوّف جدًا وقال يظهر ان ابن يونس سيقصد التتر ويأتي بعسكر يقبض عليه . فنهض واخذ ابنه علا الملك وعبيده وانهزم الى سورية في ايار تلك السنة . ووقع الخلف بين عبيده في الطريق فتركوه وعادوا الى الموصل وتولى رئاستهم علم الدين سنجر . ولما وصلوا الى المدينة اغلق الواصلة تجاههم الابواب بالاتفاق مع ياسان شحنة التتر وتركان خاتون الخوارزمية التي لم تذهب مع الصالح . وظلّ العبيد اياماً قليلة يحاربون المدينة . وكان فيها يومئذٍ رجل اسمه محيي الدين بن زبلاق اتفق معه جماعة من أحياء الموصل وفتحوا لهم الباب فدخل علم سنجر واصحابه وانهزم ياسان ورفاقه وتحصنت تركان خاتون في القلعة . ولما دخل هؤلاء الموصل اضطهدوا النصارى اضطهادًا شديدًا وانتهبوا بيوتهم وأجهزوا على كل من لم يُسلِم . وقد جحد كثير من القسوس والشمامسة والرؤساء والشعب ايمانهم سوى القليلين من آل سوَيد كيت وكوكي ونفيس الصائغ . وعلى اثر هزيمة الملك الصالح انحدر الاكراد الى ضواحي الموصل وفتكوا بكثيرين من المسيحيين واحتلوا دير الراهبات في بيت خوربدا (قرقوش) واجهزوا فيها على جماعة غفيرة وكانوا قد قدموا اليها من الاطراف واختفوا بها . وسار اولئك الملاعين الى دير مار متى واحتشد هناك ألوف من الفرسان والمشاة ونشبوا يقاتلون الرهبان مدة اربعة اشهر وحاولوا ان يتسلّقوا السور فتشجّع (٥١٧) الرهبان واحرقوا سلالمهم بالنفط . وبعد هذا فصلَ الاكراد قسماً من الجبل العالي ودحرجوا على الدير حجرة ضخمة انفلقت فلقتين وثغرت احداهما السور واغترزت فيه اغتراز الفصّ في الخاتم واستمرّت راسخة . اما الفلقة الثانية فثغرت السور وجازت . وحاول الاكراد الدخول فاحتشد الرهبان واهل القرية المنهزمون وجعلوا يقاتلون بالحجار والسهام ولم يَدَعوهم يدخلون الدير . ثم ابتنوا الثغرة بحجار وجصّ حالاً . وفي تلك المعامع فُقئت عين أبي نصر رئيس الدير وأصيب فريق بالسهام ثم استجمعوا القوى . ولما ضجر الرهبان من القتال طلبوا الامان وارتضوا بان يؤدّوا كل امتعة الكنيسة وآنيتها وان يجمعوا من الاهالي ذهباً وفضة ومصاغاً . اما الاكراد فلما بلغهم ان التتر قادمون حالًا وافقوا الرهبان واخذوا كمية وافرة بلغت قيمتها الف دينار ذهباً وانكشفوا .

وكان اهالي قرية بيت سحرايا يومئذٍ محاصرين في دير الخنافس فارتحلوا عنه وعبروا نهر الزاب يريدون اربيل فلقيهم الامير فوتكو بك واحتجَّ بانهم قادمون من قِبل الاعداء فأجهز عليهم قاطبةً رجالاً ونساء معاً .

اما عَلَم سنجر فعندما دخل الموصل بلغه ان التتر قادمون من ناحية الجزيرة فزحف اليهم فشدّوا عليه وقتلوه . ثم اقبل جاسوس التتر وأخبر ان الملك الصالح قادم الى الموصل فتأخروا ولم يدخلوها ريثما يسبقهم اليها الصالح المذكور . اما سيف الدين صاحب الجزيرة فلما بلغه ان اخاه الصالح انهزم الى سورية تأهّب هو كذلك للهزيمة فسمع نورين شحنة (٥١٨) الموصل واقبل ليقبض عليه . فاحتشد اهالي الجزيرة وحاولوا ان يفتكوا به فانهزم من وجههم ونجا . وحشد سيف الدين النصارى وطالبهم بالفي دينار ذهباً يوم عيد الصعود . وظلوا محبوسين مأيوسين . ثم وزع ذهباً وافرًا على الجنود واجتمع اليه نحو سبعين الف من الاكراد ومضوا به الى سورية وظلّت الجزيرة دون صاحب . عند ذلك نهض جنديان احدهما عزاز باس وثانيهما محمد راس الحَرَس وتوليا الرئاسة واطلقا النصارى من الحبس بعدما اخذا منهم سبعمائة دينار . ولم يفتكا الا برجلين كانا يختلفان الى معسكر التتر .

وفي تلك الغضون حشد عزّ الدين ايباغ صاحب العمادية وهو مملوك بدرالدين زها، ثلاثة آلاف فارس وسار الى الجزيرة ليتملكها . فزحف اليه نورين المذكور في ثلاثمائة فارس عند نهر الدبس الذي ينحدر من جبل كردستان فانتصر عليه وهزمه . وكان عبدالله صاحب ميافرقين قد اقبل مرّة ليحتلها فامتنعت عليه .

وفي آخر صيف هذه السنة تأهّب عزّ الدين سلطان قونية للقدوم الى خدمة ملك الملوك اذ كان السفراء يلحّون عليه في ذلك . ولما ضرب خيامه خارج قونية مستعدًا للرحيل وافاه جاسوس يقول له : ان اليغاق نوين وصل الى اقسرا ومعه اخوك ركن الدين وفروانا وهما مستعدان ان يوثقاك بالسلاسل ويذهبان بك الى ملك الملوك . فهلع وترك خيامه واخذ بيته واهله وانهزم الى قسطنطينية يريد ميخائيل ملك اليونان . ثم ان اليغاق نوين مضى بالسلطان ركن الدين (٥١٩) الى قونية واجلسه على العرش الملكي وتولى تدبيره فروانا .

وفي هذه السنة اعدّ صاحب مصر شابًا اسود من سلالة الخليفة ووجّهه مع فرقة من الجند الى بغداد ليتولاها ويجلس في تخت آبائه . وأعاد الملك الصالح صاحب الموصل الى ولايته . وذاع الخبر بان التتر قد هلكوا قاطبةً بضربةٍ سماويةٍ محقتهم وان الطيور فقأت عيونهم . تلك حكاية لا يصدّقها الاطفال انفسهم . ولما شارف الخليفة الاسود بغداد برز علي بهادر في جيشه واجهز عليه. اما الملك الصالح فما كاد يدخل الموصل مساء الثلاثاء سابع كانون الاول حتى وصل المغول بغتةً وعلى رأسهم سمداغو المغوليّ المسيحيّ الفتى المجيد . واحدقوا بالمدينة صباح الثلاثاء والقمر في برج الأسد . وابتنوا سورًا خارجيًا وجعلوا يقاتلون قتالًا عنيفًا . واستغرق القتال حتى الصيف وحدث في المدينة غلاء قاسٍ وارتخت عزائم المقاتلين وخارت قواهم . وجعل سمداغو يبعث اليهم بكلماتٍ طيبةٍ ويعد الملك الصالح وعودًا جيدة . فخرج الصالح في دفوفٍ وطبولٍ والمطربون والمشعوذون يغنون ويرقصون امامه . وما ان وصل حتى احدق به جنود المغول ودخلوا المدينة ونهبوها وقتلوا اهاليها وسقوا علاء المُلك ابن الصالح خمرًا وأسكروه واوثقوا فخذيه بوتر القوس وثقًا شديدًا حتى تفجّر بطنه وقطعوا حقويه قطعتين وعلّقوهما على عتبتي باب المدينة . وفلقوا هامة المحيي بن زبلاق ومضوا بالملك الصالح الى الاردو وقتلوه هناك. وتولى الموصل ابن يونس المذكور. ولما انتهى امر (٥٢٠) الموصل توجّه سمداغو الى الجزيرة وابتنى حولها سورًا وجعل يحاربها الشتاء كله حتى الصيف . .

واشتهر يومئذٍ حننيشوع مطران الجزيرة النسطوريّ وكان متغنيًا عن ابرشيته. وعد ملك الملوك بانه يطبع له ما شاء من الذهب هذا خبرته بصناعة الكيميا ثم حصّل منه امرًا باطلاق الأمان لاهل الجزيرة واقبل اليها فناهضه ابن عزازباس وحاول ان يقتله فعارضه الزعماء. ووعدهم المطران بانه يقصد ملك الملوك ويأتي باوامر منه في تأييدهم . وانطلق وفاز بفرمان يقرّر ان جمال الدين جولبغ عند سيف الدين صاحب الجزيرة يتولى امرها وان عزازباس ومحمدًا رئيس الحرس يكونان وصيّين وان المطران حننيشوع يكون مشيرًا ومدبرًا ومثل أبٍ وعاد الى الجزيرة فطاب قلب اهاليها وفتحوا الابواب. ثم دخل سمداغو وأمر التتر فقوّضوا الاسوار في ساعة واحدة ثم ارتحلوا واقاموا في وادي الشمام بارض اربيل .

وفي السنة ١٥٧٤ لليونان (١٢٦٣ م) ارسل سيف الدين صاحب الجزيرة أحد عبيده من مصر الى جمال الدين جولبغ عبده الذي كان متوليًا بها وسأله ان يبعث اليه بذهبٍ اخفاه في المحلّ الفلانيّ . فاستخرج الذهب ودفعه الى العبد فاخذه ومضى الى العمادية ليحادث عز الدين ايبك بما اوصاه مولاه . فأخذه عزّ الدين ومضى به الى سمداغو وهذا ارسل فاستدعى جمال الدين وعاتبه وقال له : انا نحن قد ولّيناك وانت قبلت جواسيس مصر دون ان تخبرنا . فانكر عليه ذلك . فاخرج العبدَ القادم من مصر وحكم على جولبغ بالقتل . وبعد قليل توجّه الى الجزيرة وقتل ذينك الوصيّين وولّى عليها المطران .

وفي السنة ١٥٧٥ لليونان (١٢٦٤ م) نهض الزكيّ الاربليّ احد جنود بدر الدين صاحب الموصل وادّعى لدى ملك الملوك بان ابن يونس الذي تولّى الموصل قد سرق اموالًا وافرة من ذخائر بدر الدين واخفاها (٥٢١) وهو يحاول ان يأخذها وينهزم الى مصر ولما شعر باني اطّلعت على سرّه سقاني سمًّا يحاول قتلي . ولو لم يعالجني الموفّق النصيبيني الطبيب النصراني لهلكتُ . فخط ملك الملوك وأمر ان يصفعوا ابن يونس ولمّا سطحوه سقطت رسالة من عبّه ففتحوها وقرأوها فاذا فيها آية من قرآنهم مؤدّاها : فليكن لسانهم معتقلًا في فمهم والقيود في اقدامهم والاطواق في اعناقهم ونحن نفرح ونُسر . فسأل ملك الملوك ما معنى تلك العبارات فقال له خصوم ابن يونس : انها كلمات سحرية موجّهة اليكم . فأمر بقتل ابن يونس المذكور وولّى مكانه الزكيّ الاربليّ وأُطلق عليه اسم « الواشي » لانه وشى بابن يونس المذكور .

وفي السنة ١٥٧٦ لليونان (١٢٦٥ م) في اسبوع مدخل الصوم انتقل من هذه الدنيا هولاكو ملك الملوك . ولقد كان متصفًا بحكمته وشهامة نفسه واعماله العجيبة الممتازة . وتوفيت كذلك طقوز خاتون الملكة المؤمنة في اثناء الصيف . وقد شمل المسيحيّين في كلّ العالم حزنٌ شديد على وفاة هذين النبراسين العظيمين المعززين للدين المسيحيّ !

بعد هولاكو اباقا ملك الملوك

على اثر وفاة هولاكو ايلخان اتّفق ابناء الملوك والاقطاب المغول معًا على

ان يخلفه اباقا ابنه في عرشه لان الله سبحانه قد زيّنه بالعقل والحكمة والارادة الصالحة والرحمة . ولما استقرت له المملكة أصبح مشرّفاً في كلّ حروبه ومنصوراً على جميع أعدائه . وأحبه جميع الشعوب الخاضعين لدولته .

وفي السنة ١٥٧٦ المذكورة (١٢٦٥ م) أقبل افتيميوس (٥٢٢) بطريرك اليونان الانطاكيّ مستصحباً ابنة ميخائيل بالبولوغس ليزفّها الى آباقا ملك الملوك . وكان هولاكو ابوه قد وجه السفراء منذ زمان في طلبها ولما وصلوا الى قيسارية وردهم نعيُ ملك الملوك فلم يَرَوا ان يرجعوا .

وفي هذه السنة انهزم السلطان عزّ الدين من قسطنطينية وارسل يخبر آل بركات المجاورين فوافوا ومضوا به خفية وما برح مقيماً هناك حتى اليوم .

وفي صيف السنة المذكورة بلغ الامر الى علاء الدين صاحب الديوان بان يتولى بغداد مستقلاً . وما عتم ان ورده خبرٌ مُبهمٌ مفاده ان اخاه شمس الدين صاحب الديوان قد قُبض عليه في الاردو . وعند ذلك قبض قرابوغا شحنة بغداد على علاء الدين في ٢٠ آب واعتقله في داره وارسل فاخبر اخاه . ثم ورد الامر بان يسافر مكرّماً مع اسحق الشابّ الارمني كاتب قرابوغا ومع رجل معدي يقول انه سار ليهزم علاء الدين . ولما وصلوا الى الاردو قرّر المعديّ البدويّ ان اسحق عمه ان يكذب فصدر الامر بقتلهما كليهما . ومن ثم اخذت شؤون النصارى في التبلبل .

وفي السنة ١٥٧٧ لليونان (١٢٦٦ م) سيّر البندقدار صاحب مصر الى هيتوم ملك قيليقية ان يدخل في طاعته ويؤدي له الجزية ويفتح طريق سورية ويمكّن الناس من مشترى القمح من بلاده . فلم يتيسَّر للملك هيتوم ان يأبى طلبه لخوفه من التتر . فاستعدَّ البندقدار للقدوم الى قيليقية . اما ملك الارمن فسارع الى بلد الروم يستنجد بنغجي زعيم التتر فقال له نغجي : لا يمكنني ان اجيء دون امر ملك الملوك . وفيما كان ينتظر الجواب هجم المصريون على قيليقية وكان هيتوم غائباً . فبادر اليهم اخوه قنطسطيل وولداه (٥٢٣) وزعماؤه والتقوا عند حجر سروند فانكسر الارمن واعتُقل لاون ابن هيتوم الكبير يوم الثلاثاء ٢٤ آب من هذه السنة وقتل البارون تورس ابنه الصغير وانهزم سائر زعمائه . ودخل المصريّون وعاثوا في قيليقية كلّها وقتلوا وسبوا . واحرقوا سيس وقوّضوا

كنيستها الكبرى وسائر الكنائس . ولم يفلت الا كنيستان لنا وهما : كنيسة والدة الله وكنيسة مار برصوما لان بنايتها خالٍ من الخشب . وقد احتلّوا المصيصة واياس وآطنة وأجلوا جمًّا غفيرًا من البنين والبنات . ولم يصلوا الى طرسوس . واحرقوا دير الباقساط وأبقوا على دير كوبخات لانهم شاهدوا فيه راهباً يتكلّم في اللغة العربية وقد توسّل اليهم فاغمضوا عنه وعن ديره . واقام المصريون في قيليقية عشرين يوماً ينهبون ويحرقون .

وبعد خروجهم وصل الملك هيتوم وقد استصحب عسكرًا من التتر ومن الروم . غير ان هولاء بدلًا من ان يساعدوه اشتغلوا بنهب ما تركه المصريون. وبعد ذلك كله شرع هيتوم يفتكر في نجاة ابنه ووعد المصريين باموالٍ وحصونٍ ثمناً له . فاجابه البندقدار انّ لي صديقاً عند التتر اسمه سنقر الاشقر فخلّصه وسيّره اليّ وخذ ابنك .

وفي هذه السنة حاول ركن الدين صاحب بلد الروم ان يهلك بروانة الذي وطده في التخت الملكيّ وساعده كل المساعدة في تعزيز اعماله . فلمّا اطّلع بروانة على ذلك أخبر زعماء المغول وكان ركن الدين عندهم فاشاروا الى احدهم فقصد خيمته وهو متكئ هناك وألقى وترًا في رقبته (٥٢٤)وخنقه ومضوا به فدفنوه . واقام التتر بدلًا منه غياث الدين وعمره يومئذٍ اربع سنين.

وفي هذه السنة استحدر ناصر الدين بابا امرًا من ملك الملوك وبطش بزاكي الاربيليّ وتولى الموصل .

وفي السنة ١٥٧٨ لليونان (١٢٦٧ م) وصل الملك هيتوم الى الموصل وارتحل الى خدمة الملك اباقا ويشكي امامه ابنه المأسور في مصر وطلب سنقر الاشقر ليخلّص به والده . فأشفق عليه وقال له : ان سنقر ليس حاضرًا الآن فارجع انت الى بلدك وانا ابعث فأحضره وارسله اليك . فتركه هيتوم وعاد .

وفي تلك الغضون اشتهى بروانة المتولّي تدبير مملكة بلد الروم ان يصاهر الملك هيتوم ويطلب ابنته . ففاوض الراهب فرسيغ الارمني مندوب الملك لدى التتر . وهذا الجاهل اشار عليه بانه متى مرّ هيتوم ببلدك فاذهب الى زيارته واعرض عليه طلبك فلن يردّك خائباً . ولما عاد الملك من الاردو ووصل الى فندق القراطي وبات فيه ليلته قصده بروانة في زعماء دولته وقدّم له هدايا

ثمينة جدًا وطلب ابنته . فخاف الملك وظنّ انه ان رفض طلبه يترصّده في الطريق ويؤذيه فوعده بذلك وعاد الى بلده · وظلّ بروانة يراجعه حتى قال له الملك : لا يمكن ان نصنع العرس ما دام اخو البنت مأسورًا . فاصطبر بروانة حتى عاد الاخ الى بيتهِ وزال المانع . غير ان الابنة توفيت وهلك برسيغ الراهب كذلك .

وفي صيف السنة ١٥٧٨ لليونان (١٢٦٧ م) ألقي القبض على عَلَم الرئاسة الكاتب القبطي في الاصل ومات في الحبس يوم الثلاثا ٢٦ ايلول . وفي السنة ١٥٧٩ لليونان (١٢٦٨ م) وصل سنقر الاشقر من سمرقند وأرسل الى الملك هيتوم فوجهه الى مصر .

وفي هذه السنة (٥٢٥) في ايام الصوم الاربعيني قبض مار دنحا جاثليق النساطرة على رجل تكريتيّ سبق فنادى بالاسلام وحاول ان يغرّقه في دجلة . فثار ثائر أهالي بغداد وراجعوا علاء الدين صاحب الديوان فوجّه الى الجاثليق بعض الزعما. يطلب ذلك التكريتيّ فابى الجاثليق ان يسلّمه . فهاج الاهالي وأضرموا النيران في عتبات ابواب القلّاية وتسلّقوا الجدران يحاولون الفتك بالجاثليق . فسمع صاحب الديوان وارسل فاستحضره الى داره خفيةً من جهة النهر وأنجاه . ثم أرسل الجاثليق الى الاردو يشتكي فأقبل السفراء ونقلوه الى هناك ورفع الشكوى على الاهالي فلم يكترث له احد فترك الاردو وانطلق الى اربيل وابتنى كنيسة في قلعتها واستقرّ بها .

فتح انطاكية

وفي حزيران السنة المذكورة وجّه البندقدار صاحب مصر جيوشه الى انطاكية واحتلوها بالسيف اذ لم يكن فيها حامية ولم يفتكر مَن فيها ان يسلّموها صلحاً . فدخلها المصريون واجهزوا على رجالها قاطبةً وقوّضوا كنائسها الشهيرة وأجلوا النساء والبنين والبنات وتركوها خالية خاوية حتى يومنا .

وفي صيف هذه السنة ألقي القبض على مار حننيشوع اسقف الجزيرة وصدر الامر بقتله . فسطحوه وجعلوا فوقه حجرًا ضخماً وفلقوا هامته وعلّقوها على باب المدينة . تلك كانت خاتمته الفظيعة بسبب تدخله في الشؤون الدنيوية

ومحاولته ان يتولى المدينة فضلًا عن انهاكه في الملاذ .

وفي تلك الاثنا. وجه المصري الى هيتوم ابنه لاون مكرّماً ووصل الى قيليقية في تموز السنة المذكورة فابتهج قلب ابيه وفرح المسيحيّون جميعاً بقدومه. ثم توجه الملك هيتوم الى بغداد ليشكر لملك الملوك نجاة ابنه واستقال من السلطنة بسبب شيخوخته وطلب (٥٢٦) ان يكون ابنهُ متوليًا المملكة. فقال له الملك : متى حضر الينا ولّيناه المملكة .

وفي السنة ١٥٨٠ لليونان (١٢٦٩ م) حدثت زلزلة هائلة في قيليقية في الساعة الاولى من ليلة الاربعاء. واخربت قلعة سروند وقلعة عماوس وقلعة الحجر الأصفر ودير بالوط الملك وهو اكبر اديار الارمن . وهلك في تلك الزلزلة زها. ثمانية آلاف نسمة .

وفي تموز توجه الملك لاون ابن الملك هيتوم الى خدمة ملك الملوك فرحّب به ترحيباً جميلًا وفوّض اليه سياسة مملكة ابيه .

وفي السنة ١٥٨١ لليونان (١٢٧٠ م) شخص صاحب مصر الى فلسطين وحاصر حصن الاكراد واخذه عنوةً . ولم يقتل احدًا بل اطلق الحرّية لمن يريد الاقامة به او الذهاب الى طرابلس .

وفي خريف السنة ١٥٨٢ لليونان (١٢٧١ م) توفي هيتوم الملك المزمن بدمّلة خرجت في صدره . واجتمع الاساقفة والزعما. في طرسوس وتوّجوا ابنه لاون ملكاً يوم عيد الدنح (الظهور) .

وفي مدخل الصوم وثب الاسمعيليون على علاء الدين صاحب الديوان في بغداد وهو راكب وضربوه بالسكاكين ولم يقتلوه فقبض عليهم وقُطعت اعضاؤهم واذاع العرب بان المتدين كانوا نصارى وقد ارسلهم الجاثليق . بناء عليه أُلقي القبض على الاساقفة والرهبان والأعيان وحُبسوا في بغداد وقبض تتولو بك كذلك على الجاثليق وعلى اساقفته في اربيل وعذّبوهم الصوم كلّه حتى صدر بعون الله تعالى الامر من الاردو باعتاقهم جميعاً . وبعد هذا سار الجاثليق الى مدينة اشنو باذربيجان واقام بها.

وفي السنة ١٥٨٣ لليونان (١٢٧٢ م) حاول زعما. اليونان في قيليقية ان يغدروا بالملك لاون . وما ان شعر بالدسيسة حتى قبض على البارون كبيرهم

فسمع رفاقه وانهزموا الى احدى القلاع وارسلوا الى بلاد الروم (٥٢٧) يطلبون نجدة ليتسلموا القلعة . اما الملك فبادر الى القلعة وحاصرها ووثب الارمن الذين فيها الى الزعماء اليونان وسلموهم الى الملك فقضى عليهم جميعاً وأهلك مثلهم بهرام في قلعة عين زربة . على ان اليونان لما انهزموا الى تلك القلعة استدعى الملك بطريرك انطاكية اليوناني[1] وسيّره اليهم واقسم لهم إن انحدروا فلن يؤذيهم . غير ان البطريرك لما ذهب اليهم قال لهم : امكثوا مكانكم والا فانكم تهلكون جميعاً . ثم انقلب وقال للملك : انهم لم يطيعوني ولم ينزلوا . فشعر الملك بما جرى وبعد ما بطش بهم قبض على البطريرك كي يوجهه الى قسطنطينية فيقضي الملك بينهما . ولما سلّمه الى الجنود ليمضوا به الى العاصمة ووصلوا الى مدينة اياس نصبوا له خيمة على ساحل البحر وتركوه وقصدوا المدينة ليبتاعوا لهم طعاماً واستغرقوا في شرب الخمرة الى الليل فارسل البطريرك الى بعض الملّاحين اليونان الذين كانوا قريبين واستدعاهم اليه وجعل يبكي امامهم وصرّح لهم بان الجنود الارمن انما يريدون اهلاكه متى ركب البحر ولن يوصلوه الى قسطنطينية . فاشفقوا عليه واركبوه سفينتهم الصغيرة ومضوا به الى بلاد الروم التي كانت في حوزة الاتراك .

وفي هذا الزمان زفّ لاون ملك الارمن ابنته الى ابن بروانة بدلاً من اختهِ التي رفض ابوه ان يزفّها اليه . وعقد الفريقان صلحاً ما بينهما وهمياً .

وفي السنة ١٥٨٤ لليونان (١٢٧٣ م) حدثت زلزلة مريعة في مدن اذربيجان ولا سيّما في تبريز ليلة الاربعاء ١٨ كانون الثاني . وقوّضت الدور والمساجد وقمم الابراج . وقد صان الله تعالى كنيستنا وظلّت الصلوات تقام فيها بحضور اليونان والارمن والنساطرة والسريان . امّا سائر (٥٢٨) الاهالي العرب فقد غادر ربوات منهم المدينة ونصبوا الخيام في الجنائن واقاموا هناك نحو شهرين ثم عادوا الى بيوتهم . ومات في تلك الزلزلة زهاء مائتين وخمسين نسمة من العرب .

وفي صيف تلك السنة اقبل كُنْناء سوريّة من عينتاب ومن البيرة الى بلد

---

[1] افثيموس الاول (١٢٥٨ ؟ - ١٢٧٣)

قلودية من ناحية الجبل وساروا كالبرق حتى بلغوا غاية البلد ثم انقلبوا وأجلوا الاهالي قاطبةً نساء وصبياناً وعادوا ولم يبيتوا خيفة ان يدركهم جيش المغول .

وتأهبنا في تلك الايام للذهاب الى دير مار برصوما ولم نشعر بتلك النائلة حتى اشرفنا على البلد فرأيناه مثل كرم اكتسحه البَرَد واقمنا في دير سرجيس حتى وافى نحو خمسين راهباً مسلحين وسرنا معهم الى الدير المذكور .

وفي السنة ١٥٨٥ لليونان (١٢٧٤ م) انحدر ملك الملوك في جيوش كثيفة الى بغداد وحدث فيها غلاء . وقلّت الغلات وظهر الجراد كذلك .

وفي ايام الصوم الاربعيني من تلك السنة كلف راهب نسطوريّ من دير مار ميخائيل الذي بجانب الموصل بامرأة عربيّة . ولمّا فُضِح امره جاهر بالاسلام فاغتمّ المسيحيّون غمّاً شديداً . واستفظع رهبان ذلك الدير وعمُّ الراهب المذكور ما جرى ولم يطيقوا احتمال ذلك العار والاحتقار فارسلوا الى طرفاشي قائد الجيش المغوليّ وطلبوا حضوره فاقبل الى الموصل وقبض على ذلك الراهب الذي أسلم يريد البطش به . فشعر الاهالي المسلمون وتحمّسوا واحتشدوا عند باب البلاط حاملين العصيّ والمصابيح وتهدّدوا القائد المغوليّ مصرّحين له بانه ان لم يطلق ذلك الراهب فتكوا به وبمن معه . فخاف القائد وأطلقه . فاخذوه واركبوه وطافوا به في المدينة وشمل جميع النصارى الحزن اكثر من الاول .

وفي تلك الايام شاء نصارى اربيل (٥٢٩) ان يحتفلوا باحد الشعانين وعرفوا ان العرب مُتحفّزون ليزعجوهم فارسلوا يستدعون الى مساعدتهم بعض التتر النصارى المجاورين . فاقبلوا ووضعوا الصلبان في رؤوس الرماح . وخرج مطران النساطرة وجميع الشعب يتقدّمهم اولئك التتر راكبين . لمّا قربوا من القلعة احتشد جماهير العرب وتناولوا الحجار وجعلوا يرجمون التتر والنصارى معاً . فتشتّت شملهم وانهزم كلّ النصارى وظلّوا اياماً لا يجسرون ان يخرجوا ظاهراً . وقد امتعض المسيحيّون في كلّ البلاد بسبب ذلك ايّ امتعاض .

وفي هذه السنة توفّي خواجا نصير الفيلسوف الفارسيّ الذي امتاز بالفضل في كلّ العلوم الحكميّة ولا سيّما في العلوم الرياضيّة وآلات الرصد والدوائر النحاسيّة الكبرى ففاق فيها ما اقامه بطلميوس في الاسكندرية . واختبر سير الكواكب وأتقنه . واجتمع كثير من الحكماء من مختلف البلاد واقبلوا الى

مراغة باذربيجان . وكانت جميع اوقاف المساجد والمدارس في بغداد وآثور تحت حكمه يوزّع منها الاجور على المعلّمين والطلّاب الذين لديه . ففي هذه الغضون لمّا قصد بغداد ليشرف على تلك الاوقاف ادركه الأجل . واذاع بعضهم انه مات مسموماً . وقد صنف كتباً جمّة في المنطق والطبيعيات والالهيّات واوقليدس ومجسطي بدقّة تامّة . وله كذلك كتاب الاخلاق في الفارسيّة جمع فيه نصوص افلاطون وارسطو في الفلسفة العمليّة . وكان متشبّثاً بآراء الفلاسفة الاقدمين يعارض معارضة قويّة في تصانيفه كلّ مَن يخالفهم .

وفي السنة ١٥٨٦ لليونان (١٢٧٥ م) توجّه بعض الاشرار ليلاً في كانون الاوّل وقرعوا باب يهوديّ صائغ في الموصل . فقال لهم ماذا تريدون ؟ قالوا : اننا شبّان وقد قصدناك لتعطينا نفقةً . فاستخبرهم (٥٣٠) قائلاً : كم تريدون ؟ قالوا : عشرين درهماً . فدفع لهم ما طلبوا من ثقب الباب . لكنّهم رفضوا وقالوا له : افتح لنا الباب . وظلّوا نحو ساعة يتخاصمون ثم تسلّق بعضهم السطح وانحدروا الى البيت وفتحوا الباب ودخل اصحابهم كذلك . وجعلوا يضربون اليهوديّ حتى دفع لهم كلّ ما كان لديه . ولمّا حاولوا الفتك به ألقت امرأته بنفسها عليه وتوسّلت اليهم ان يشفقوا على شبابه ويقتلوها عوضاً عنه . غير ان اولئك الخبثاء القساة القلب قالوا لها : اننا سنقتلكِ ونقتله كذلك . وبعد ما ذبحوا زوجها طعنوها بالسكاكين وتركوها على آخر رمق وانصرفوا في المال الذي اخذوه . ولمّا اصبح الصباح اقبل بعض الناس وشاهدوا اليهوديّ مذبوحاً وامرأته تنازع فاخبرتهم بما جرى واسلمت انفاسها في الساعة التاسعة .

وتوجّه في تلك الغضون نحو ثلاثين رجلاً من فقراء العرب من اطراف سورية الى قيليقية يريدون زيارة قبر الخليفة المأمون المدفون في طرسوس وتبادر الى الظنّ ان البندقدار صاحب مصر هو معهم وقد تنكر يريد جسّ سائر الدول . فقبض عليهم صاحب قيليقية وزجّهم في قلعة كبيرة . ولمّا انتشر الخبر في مصر جعل الوفود يتقاطرون في طلب المحبوسين وغلب على الظنّ ان ما قرّره الارمن حقيقيّ وأبى لاون الملك اطلاقهم . عند ذلك احتشد خمسمائة فارس من الجيش المصري وزحفوا الى قيليقية ايام الصوم الكبير عام ١٥٨٦ لليونان (١٢٧٥ م) فقاومهم الارمن وهزموهم . فاحتشد تكراراً نحو ثمانية آلاف وباغتوا البلد

التاعس الحظ ووصلوا الى اياس في فجر الاثنين من اسبوع العجائب ٢٦ آذار (٥٣١) وفتكوا بمن وجدوا فيها وكان اغلب اهاليها منهزمين ومحتشدين في مكان قريب خوفاً من المصريين . غير ان اللصوص الفرنج وثبوا اليهم ونهبوا كل ما لهم وانتزعوا ثيابهم كذلك ولكنهم لم يقتلوهم .

اما المصريون فسارعوا من اياس الى المصّيصة يوم الثلاثا وفتكوا باهاليها فتكاً ذريعاً واحرقوها باسرها . وانتقلوا الى جشرا وتفرقوا في ضواحيها وسار بعضهم الى طرسوس وقصدوا برجها يوم السبت عيد العرب واذنوا فيه ثم تبسّطوا حتى قوزيقس يقتلون وينهبون ويحرقون . وتوجّه بعضهم الى سيس ولم يجدوا فيها خلقاً اذ كان الاهالي جميعاً متحصّنين في القلعة فاحرقوا بعضها . وقد قتلوا خمسة وعشرين راهباً في دير البقساط في جملتهم الربّان سليمان الشيخ الجليل وكاتب اسرار البطريرك اغناطيوس المتوفى واحرقوا الدير المذكور ودير كوبثات وسائر اديار الازمن واليونان ومحقوا دير بطريركنا الواقع في لحف سيس . اما البطريرك فانهزم الى قلعة بهجا وانزوى هناك حتى زال الغضب . وظلّ المصريون هناك حتى آخر الاسبوع التالي لعيد القيامة ثم انصرفوا في غنائم وافرة . وأربى عدد القتلى على الستين الفاً . اما النسا والصبيان الذين استاقوهم عبيداً فلا يُحصى عددهم . وكان في ذلك البلد زها عشرة آلاف من التركمان تعدّوا على المسيحيين فلمّا رجع المصريون أجهز الملك عليهم قاطبةً واستعبد بعضهم ونهب كل مالهم .

وفي تلك السنة مات البرنس بوهيمند امير طرابلس وخلفه ابنه الفتى ووجه الزعما . فاحضروا (٥٣٢) سير هنري والد صاحب قبرس الشيخ الرزين وفوّضوا اليه تدبير الفتى وسياسة المملكة .

(يتبع)

المرأة الغلامية في الاسلام

بقلم حبيب زيات (†)

من مخلّفات فقيد العلم والادب ، حبيب زيّات ، اوراق ووثائق عديدة ، قُدّر له ان يُبوّب قسماً منها وها نحن ننشر اليوم هذا الدرس الطريف عن « المرأة الغلامية في الاسلام» الذي سيروق قرّاء المشرق الكرام بما فيه من نكتة وظرف وبما نجد في المؤلف من حبّ العودة الى الاصول ومن الولع في التنقيب ما امكنه عن امور قلّ ان اهتمّ بها مؤرّخو العصور الغابرة مع انها تُعطي صورة حيّة عن الجوّ الاخلاقي والادبي في تلك الايام . اذ لا يستطيع مؤرخ ما اذا طارت به النفس الى تأريخ فئة من العصور الماضية الّا ان يتوقف عند بعض المظاهر اليومية التي كان لها اليد الطولى في توجيه سياسة او في توطيد علاقات . وسننشر في عدد مقبل من هذه المجلّة درساً آخر شيّقاً عن « حمل اللحى في الاسلام » .

وما تُرك لنا ان نقدّمه للقرّاء الكرام وثائق مبعثرة جمعتها يد ذلك العالم الكفوء وحفظتها الى ان نُقلت الينا وهي عبارة عن رسائل اصلية تُبودلت بين احبار الكنيسة الملكية والمجامع الرومانية . فان نشرناها بكاملها – ونحن صانعون – ادّينا لتاريخ الكنيسة الملكية العزيزة خدمة جلّى في ما يتعلق بالعدد الكبير من ابرشياتها السورية واللبنانية . وقد فضّلنا نشر هذه الوثائق دون تأويل ولا تعليق تابعين توقيتها الزمني فقط اذ هي كافية لتطلع القارئ على الامور التي كانت حجر عثرة او محور تبادل او نقطة انفراج ، تاركين للمؤرّخ ان يستفيد منها ويقابل بين الواحدة والاخرى كي يستخلص منها ما له ان يستخلصه .. وبالله الكريم التوفيق وهو حسبنا .

الاب ا. عبده خليفه اليسوعي

المقدمة

في كتاب الفهرست لابن النديم الوراق اسماء عدة مصنفات في اخبار النساء واوصافهن واهم ما ذكر منها «كتاب من تشبه بالرجال من النساء» لابي الحسن المدائني (ص ١٥١ من طبعة القاهرة) وهو اليوم اعوز كتاب لنا لاستطلاع اخبار المرأة الغلامية في الاسلام وتعرف المحل والمقدار الذي بلغته في الحضارة والتظرف في الحياة الاجتماعية بيد اننا لا ندري هل المَّ فيه مؤلفه بنعوت النساء المترجلات في اخلاقهن وازيائهن وسائر احوالهن ام اقتصر فقط على سرد اسماء من اشتهر منهن بتقليد الذكور وروى بعض غرائبهن وما كن ينفردن به من المحاسن والمساوئ ولم نعثر على كتاب آخر في معناه وغاية ما وقفنا عليه من اسماء الكتب الموضوعة في اخبار النساء عامة ما يأتي :

كتاب القيان والجواري للجاحظ[1] .

كتاب النساء لابن قتيبة[2] .

كتاب اخبار المتظرفات لابي الطيب الوشاء[3] .

كتاب اخبار النساء وكتاب من وصف امرأة فاحسن[4] .

كتاب تحف الوسائد في اخبار الولائد لابي الفرج الاصبهاني[5] .

كتاب الوثائق للمرزباني فيه وصف احوال النساء ونعوته وضروبه وطرقه واخبار المتنين والمتنيات الاحرار والاماء والعبيد[6]

كتاب اخبار النساء للميداني[7] .

كتاب اخبار النساء للهيثم بن عدي[8] .

كتاب النساء للجاحظ[9] .

---

١) الوافي بالوفيات للصفدي خزانة اكسفرد Seld. Arch. د 28 f° 11-12

٢) الفهرست ١١٥

٣) « ١٢٦

٤) « ١٤٩

٥) نهاية الارب للنويري ٥ : ٩٨

٦) الفهرست ١٩٢

٧) معجم الادباء لياقوت ١٤ : ١٣٣

٨) معجم الادباء ١٩ : ٣١٠

٩) « « ١٦ : ١٠٨

كتاب اخبار النساء لهرون بن علي المنجم[١] .
كتاب النساء لحفص بن عمرو المنبري[٢] .
كتاب النساء لاحمد بن عبدالله الرقي وكتاب الزينة وكتاب الزي له[٣] .
كتاب اخبار النساء لابن حاجب النعمان[٤] .
كتاب النساء وما جاء فيهن من الخبر ومحاسن ما قيل فيهن من الشعر والكلام الحسن[٥] .
كتاب قيان الحجاز وكتاب القيان لاسحق بن ابرهيم الموصلي[٦] .
كتاب اخبار المتظرفات لابي الفضل احمد بن ابي طاهر او لابنه ابي الحسين[٧] .
كتاب اخبار النساء لابن الشاه الظاهري[٨] .
كتاب المتظرفات والمتظرفين لعبيد الله احمد بن ابي طاهر[٩] .
كتاب النساء لابرهيم بن القاسم القيرواني[١٠] .
كتاب المستظرف من اخبار الجواري لجلال الدين السيوطي من مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق ٣٠ صفحة (رقم ٥٨٦ مجموع عام) .

وفي تضاعيف الكتب والمجاميع الادبية فصول شتى واوصاف للنساء كالباب السابع والعشرين في النعوت والصفات وهي اربعون نوعاً : الحادي عشر في النساء ولباسهن وزينتهن من التذكرة الحمدونية وقد كان هذا الجزء منها محفوظاً في خزانة نور الدين بك في القاهرة .

وقد عبث الدهر بمعظم هذه المؤلفات الممتعة واضاعها اثراً بعد عين وحرمنا بفقدها اهم ما يُستند اليه في تعريف المرأة والقينة والوصيفة العلاميات ولعل انفس ما كان منها كتاب الزينة وكتاب الزي للرقي ثم كتاب اخبار المتظرفات لابي الطيب الوشا لما قد يكون اودعه فيه الوشا من اوصاف النساء والولائد والاماء في الحلي والزي والملبس والتعطر والمعاشرة والمغازلة كالتي اشار اليها وسرد جانباً منها في كتابه الموشى المطبوع لاول مرة في ليدن ولم يبقَ لنا اليوم بعد ضياع هذه النسائيات الا تفلية كل سفر مطبوع او مخطوط وتلقط كل وصف او اشارة في النثر والنظم تشف عما وراءها من نعوت العلامية في

١) معجم الادباء ١٩ : ٢٦٢
٢) « ١٠٠
٣) معجم الادباء ٤ : ١٣٣
٤) الفهرست ١٩٣
٥) « ٢٠٦
٦) الفهرست ٢٠٣
٧) « ٢١٠
٨) « ٢١٨
٩) « ٢١٠
١٠) معجم الادباء ١ : ٢١٦

الحضارتين العباسية والفاطمية وهو ما تصدينا له وتوفرنا عليه في زياراتنا للخزائن العربية في الشرق والغرب حتى اجتمع لنا من هذه المطالعات والتنقيبات المضنية نوادر وروايات ولُمع وحكايات تمثل جانباً من خصائص الغلامية وفوارقها وما امتازت به في المشرق من شكل وزي وتظرف وتشطر وعبث ومجون وتزين وافتتان ودلّ وحظوة ما يتشوّق الى معرفته كل متطلع الى غرائب الحياة والمجتمع العربي في الدهر السالف راغب في النظر الى اعجب وجه وقدّ في الاسلام فتن بها الخلفاء. والخلائق وبزّ بها الشرق كل ما اشتهر به الغرب من إغراب وإبداع وجرأة على خرق العادات والخروج عن المألوف لاستدعاء الانظار واجتذاب القلوب .

المرأة المترجلة في الجاهلية واوائل الخلافة الاموية

في صحيح البخاري ان الرسول لعن المتشبهين من الرجال بالنساء. والمتشبهات من النساء بالرجال[١] اي في زيهم وهيئتهم وعن ابي هريرة انه لعن الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل[٢] وقيل لعائشة: ان المرأة تلبس النعل فقالت: لعن رسول الله الرجلة من النساء.[٣] لان النعل كانت لا تستر كل القدم وبعض الساق خلافاً للخف . وهذه الاحاديث تدل دلالة بيّنة على ان داء الترجل في النساء كان شائعاً في البادية وظل معروفاً في الاسلام .

وروي عن نافع انه قال : كان ابن عمر وعبد الله بن عمرو عند الزبير بن عبد المطلب اذ اقبلت امرأة تسوق غنماً متنكبة قوساً فقال عبدالله بن عمرو أرجل انت ام امرأة فقالت امرأة فالتفت الى ابن عمر وقال : ان الله تعالى لعن عن لسان نبيه (صلعم) المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء.[٤] .

واشار الذهبي الى الالبسة التي تتشبه بها المرأة بالرجل فقال : اذا لبست

١) صحيح البخاري ٧ : ٥٢

٢ و٣) سنن ابي داود ٢ : ١١٨

٤) كتاب الكبائر للذهبي ١٣٠

المرأة زي الرجال من المقالب والفرج والاكمام الضيقة فقد شابهت الرجال في لبسهم فتلحقهم لمنة الله ورسوله ولزوجها[١] وهذا بعض ما كانت المرأة تقلد به الرجل وهنالك البسة وازياء اخرى كانت تختلف باختلاف الازمنة والعادات .

ومن اشهر المترجلات في الصدر الاول عزة الميلاء احدى المغنيات المحسنات في عهد حسان بن ثابت قيل كانت تلبس الملاء وتتشبه بالرجال فسميت بذلك[٢] وتلحق بها ام سعيد الاسلمية وبنت ليحيى بن الحكم بن ابي العاصي «كان المخنث الدلال ملازماً لها وكانتا من امجن الناس تخرجان فتركبان الفرسين فتستبقان عليها حتى تبدو خلاخيلها فقال معاوية لمروان بن الحكم : اكفني بنت اخيك فقال : افعل فاستزارها وامر ببئر فحفرت في طريقها وغطيت بحصير فلما مشت عليه سقطت في البئر فكانت قبرها وطلب الدلال فهرب الى مكة[٣] وليت الراوي ذكر لنا ايضاً ما فعل الدهر ام الرجال بام سعيد وكيف كانت منيتها .

وفي ايام الحجاج تزوج الضحاك الشاعر باربع نسوة وكان قد سمع الحجاج يرغب في ذلك ووصفهن بابيات قال في الزوجة الثالثة منهن :

وثالثة ما ان تُوارى بثوبها مذكَّرة مشهورة بالتبرّج[٤]

وهو ما يشير الى رقة ثوبها وشفوفه عن بشرتها .

وقد غابت عنا اكثر اخبار النساء واحاديثهن في الخلافة الاموية وقد غطت عليها جلالة الحوادث وشدة التنازع بين الطالبيين والامويين وضاع معها معظم دواوين الشعراء المتقدمين فلا ندري من شؤون المرأة فيها واوصاف الجواري والوصائف والاماء ما يبنى عليه حكم او يصح فيه تمثيل على ان البادية لم تخلُ قط قبل الهجرة وبعدها من فتيات مذكّرات يتشبهن بالرجال في اللباس والتعمم والتلثم وطلب القنص والغزو وركوب الخيل ومعاقرة الشراب كالفتيان ومن الامثلة في ايام عمر بن ابي ربيعة ما حكاه عمر عن صديق له من عذرة يقال له الجعد بن مهجع وصف له فيه يوم الدوحة قال :

١) كتاب الكبائر ١٢٩

٢) الاغاني طبعة بولاق ١٦ : ٨٣

٣) الاغاني ٤ : ٦٤

٤) ذيل الامالي والنوادر للقالي طبعة بولاق ٦٨

« اني رجل ذو مال كثير من نعم لا يصدره ويرويه الثماد وقطر الغيث ارض كلب فانتجعت اخوالي منهم فاوسعوا لي عن صدر المجلس وسقوني جمّة[١] الماء. وكنت فيهم في خير اخوال ثم اني عزمت على موافقة ابلي بماء لهم يقال له الحوزان فركبت فرسي وسمطت[٢] خلفي شراباً كان اهداه لي بعضهم ثم مضيت حتى اذا كنت بين الحي ومرعى النعم رفعت لي دوحة عظيمة فنزلت عن فرسي وشددته بغصن من اغصانها وجلست في ظلها فبينما انا كذلك اذ سطع غبار من ناحية الحي ورفعت لي شخوص ثلاثة ثم تبينت فاذا فارس يطرد مسحلاً[٣] واتاناً فتأملته فاذا عليه درع اصفر وعمامة خز سوداء. واذا فروع شعره تضرب خصريه فقلت غلام حديث عهد بعرس اعجلته لذة الصيد فترك ثوبه ولبس ثوب امرأته فما جاز عليّ قليلاً حتى طعن المسحل وثنّى طعنة للاتان فصرعها واقبل نحوي وهو يقول :

نطعنهم سلكى ومخلوجة كرَّك لامين على نابل[٤]

فقلت انك قد تعبت واتعبت فلو نزلت فثنى رجله فنزل فشد فرسه بغصن من اغصان الشجرة والقى رمحه واقبل حتى جلس فجعل يحدثني حديثاً ذكرت به قول ابي ذؤيب :

وان حديثاً منك لو تبذلينه جنى النحل في ألبان عوذ مطافل[٥]

فقمت الى فرسي فاصلحت من امره ثم رجعت وقد حسر العمامة عن رأسه فاذا غلام كأن وجهه الدينار المنقوش فقلت : سبحانك اللهم ما اعظم قدرتك واحسن صنعتك فقال : مِمَّ ؟ قلت : مما راعني من جمالك وبهرني من نورك قال : ما الذي يروعك من حبيس التراب وأكيل الدواب ثم لا يدري أينعم بعد ذلك ام ييأس قلت : لا يصنع الله بك الا خيراً . ثم تحدثنا ساعة فاقبل

---

١) جمة الماء معظمه .
٢) سمط علّق .
٣) المسحل الحمار الوحشي .
٤) السلكى الطعنة المستقيمة والمخلوجة الطعنة المعوّجة واللام سهم عليه ريش لؤام يلائم بعضه بعضاً والنابل صاحب النبل .
٥) عوذ جمع عائذ وهي الحديثة النتاج الى خمسة عشر يوماً ثم هي بعد ذلك مُطفل .

عليَّ وقال : ما هذا الذي سمطت في سرجك ؟ قلت : شراب اهداه اليَّ بعض اهلك فهل لك فيه من أرب قال : انت وذاك فأتيته به فشرب وجعل ينكت احياناً بالسوط على ثناياه فجعل والله يتبين لي ظل السوط فيهن فقلت: مهلاً فاني خائف ان تكسرهن فقال : ولِمَ قلت انهن رقاق وهن عذاب ثم رفع عقيرته يتغنى :

اذا قبّل الانسان آخر يشتهي ثناياه لم يأثم وكان له اجرا
فان زادَ زاد الله في حسناته مثاقيل يمحو الله عنه جا الوزرا

ثم قام الى فرسه فاصلح من امره ثم رجع فبرقت لي بارقة تحت الدرع فاذا ثدي كأنه حق عاج. فقلت : نشدتك الله امرأة ؟ قالت : اي والله الا اني اكره العَهَر(١) واحب النزل . ثم جلست فجعلت تشرب معي لا افقد من انسها شيئاً حتى نظرت الى عينيها كأنهما عينا مهاة مذعورة فوالله ما راعني الا ميلها على الدوحة سكرى فزين لي والله الغدر وحسن في عيني ثم ان الله عصمني منه فجلستُ حَجرةً منها فما لبثت الا يسيرًا حتى انتبهت فزعة فلاثت عمامتها برأسها وجالت في متن فرسها وقالت : جزاك الله عن الصحبة خيرًا قلت : اما تزويديني منك زادًا ؟ فناولتني يدها فقبّلتها فشممت والله منها ريح المسك المفتوت فذكرت قول الشاعر :

كأنها اذ تقضى النوم وانتبهت سحابة ما لها عين ولا اثر

قلت : واين الموعد . قالت : ان لي اخوة شُرُساً وابًا غيورًا ووالله لأن اسرّك احب اليَّ من ان اضرّك ثم انصرفت فجعلت اتبعها بصري حتى غابت فهي والله يا ابن ابي ربيعة احلّتني هذا المحل وابلغتني فقلت له : يا ابا الاسبر ان الغدر بك مع ما تذكر لمليح فبكى واشتد بكاؤه فقلت : لا تبكِ فما قلت لك ما قلت الا مازحاً ولو لم ابلغ في حاجتك بمالي لسعيت في ذلك حتى اقدر عليه فقال لي خيرًا .

فلما انقضى الموسم شددت على ناقتي وشد على ناقته ودعوت غلامي فشد على بعير له وحملت عليه قبة حمراء من ادم كانت لابي ربيعة المخزومي وحملت معي

(١) في الاصل المطبوع : اكره البشر وهو تصحيف يخالف ما يقتضيه الكلام والصحة : العَهَر اي الفجور .

الف دينار ومطرف خز وانطلقنا حتى اتينا بلاد كلب فنشدنا عن ابي الجارية فوجدناه في نادي قومه واذا هو سيد الحي واذا الناس حوله فوقفت على القوم فسلت فرد الشيخ السلام ثم قال : من الرجل ؟ قلت عمر بن ابي ربيعة بن المغيرة فقال : المعروف غير المنكر فما الذي جاء بك ؟ قلت خاطباً . قال : الكفء والرغبة . قلت : اني لم آتِ ذلك لنفسي عن غير زهادة فيك ولا جهالة لشرفك ولكني اتيت في حاجة ابن اختكم العذري وها هو ذاك فقال : والله انه لكفء الحسب رفيع البيت غير ان بناتي لم يقعن الا في هذا الحي من قريش[1] فوجمت لذلك وعرف التغير في وجهي فقال : اما اني صانع بك ما لم اصنعه بغيرك قلت : وما ذاك فمثلي من شكر قال : اخيّرها فهي وما اختارت قلت : ما انصفني اذ تختار لغيري وتولّي الخيار غيرك . فاشار اليَّ العذري أن دَعْه يخيّرها فارسل اليها ان من الامر كذا وكذا فارسلت اليه : ما كنتُ لاستبد برأي دون القرشي فالخيار في قوله حَكَمْهُ . فقال لي : انها قد ولّتك امرها فاقضِ ما انت قاض فحمدت الله عز وجل واثنيت عليه وقلت : اشهدوا اني قد زوجتها من الجعد بن مهجع واصدقتها هذه الالف دينارا وجعلت تكرمتها العبد والبعير والقبة وكسوت الشيخ المطرف وسألته ان يبني عليها في ليلته فارسل الى امها فقالت : أتخرج ابنتي كما تخرج الامة فقال : هجّري[2] في جهازها فما برحتُ حتى ضربتُ القبة في وسط الحريم ثم أُهديَت له ليلًا وبت انا عند الشيخ فلما اصبحت اتيت القبة فصحت بصاحبي فخرج اليَّ وقد اثّر السرور به فقلت : كيف كنت بعدي وكيف هي بعدك فقال لي : ابدت لي والله كثيرًا مما كانت اخفته عني يوم لقيتها فسألتها عن ذلك فانشأت تقول :

كتمت الهوى لما رأيتك جازعاً ... وقلت فتى بعض الصديق يريد
وأن يطَّرحني او يقول غُنيَّة ... يضرّ بها برح الهوى فتعود
فورَّيت عما بي وفي داخل الحشا ... من الوجد برح فاعلمنَّ شديد

فقلت : أقِمْ على اهلك بارك الله لك فيهم وانطلقت وانا اقول :

---

١) معلوم ان الخليفة معاوية تزوج ميسون الكلبية وهي ام ولده يزيد .

٢) هجّري اي اسرعي وبادري .

كفيت اخي العذري ما كان نابهُ وأني لاعباء النوائب حمّال
اما استحسنت مني المكارم والعلى اذا اطّرحت اني لمالي بذّال[1]

وهذا المثال وحده جامع لكل ما كانت المرأة في البادية تطمع فيه لمحاكاة الرجل في لباسه وهيئته وعمته وركوبه واعتقاله الرمح وتنكّبه القوس للقنص ومطاردة الوحش ومعاقرته الشراب حتى السكر ولكنها كانت للعفة الغالبة عليها تقف عند حدود الدين والانس ومع محبتها للغزل كانت تكره العهر اي الفجور كما قالت الفتاة الكلبية

لقب الغلامية

يراد بالغلامية المرأة المتشبهة بالغلام في زيه وشكله وهيئته، وهو ما وصفها به ابو نواس بقوله :

وجارية لها شكل النواني فتاة السن في زي الغلام[2]

واتم منه مطابقة قوله فيها ايضاً :

مذكّرة مؤنثة مهاة اذا برزت تشبّها غلاما[3]

وله فيها اوصاف اخرى سيأتي ذكرها قريباً فاق بها سائر الشعراء. وممن جرى على سننه في نعتها المعلّى الطائي فقال من ابيات :

مورّدة الخدين مضمومة الحشا معقربة الصدغين فاترة الطرف
تقمّص اثواب الرجال تمرّدا وتأنف من لبس القلادة والشنف[4]

ولا ريب ان هذا اللقب نشأ في اوائل الخلافة العباسية وقد خلا الشعر الاموي منه لان القوم وقتئذٍ كانوا احدث عهداً بالبداوة واقرب الى الفطرة فتنزهت اشعارهم عن كل ما يخالف السجية من آفات الحضارة فلم يقم منهم من تصبى غير الغواني والمها او تغزل بالغلمان ولا يبعد ان بعض التشبيه بالذكور

---

١) الاغاني ١٠ : ٥١ – ٥٣ وجمهرة الاسلام ذات النثر والنظام لابي الغنائم مسلم بن رسلان الشيزري خزانة ليدن Arabe 287 Warn f° 27

٢) ديوانه طبعة القاهرة ٣٣٣

٣) ديوانه خزانة باريس ٣٠٨٣ ص ١٨٦

٤) كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز ١٦٨

في الوصائف الامويات كان قد بدأ ينتشر في بعض المنازل والمدن كطمّ الشعر اي قصّه كشعر الغلمان لانه كان معروفاً في الجواري الروميات في القسطنطينية ومنّ اشيمى الى اهل الشام وامل هذا الترجل كان ايضاً يشاهد في نساء فارس ويقال للمرأة المترجلة عندهم زنجردة وهي التي دعاها شاعر الاغاني زمرّدة فقال :

بليت بزمّردة كالعما العرّ واخبث من كندش

وقيل في تفسيرها الزمردة لغة في زنجردة وهي المرأة التي تشبه الرجال خلقاً وخُلقاً[1].

الرقيق والوصائف والنساء الغلاميات في الخلافة العباسية

كان الترجل في الخلافة العباسية لا يكاد يجاهر به ويتخلق باخلاقه سوى الاماء والوصائف والجواري الاعجميات دون الحرائر من الاشراف لانهن كن يترفعن عن هذا التقليد والابتذال ولذلك لما وُصفت للمتوكل على الله ربطة بنت العباس بن علي « فحملت اليه فتزوجها سألها ان تطم شعرها وتتشبه بالماليك فأبت عليه فاعلمها انها ان لم تفعل فارقها فاختارت الفرقة فطلقها »[2] وكان المتوكل احد الخلفاء المغرمين بالنظر الى الغلاميات وسماع التغزل بهنّ في الشعر كما سيجيء .

وقد ذكر بعض الرواة والاخباريين تغلب حب التسري اي التزوج بالاماء على اهل الصدر الاول بعد فتوح البلدان ونقل المبرد نكتة عدّد فيها ثلاثة من اولاد الخلفاء الاولين ابي بكر وعمر وعلي بن ابي طالب كان كل منهم ابن أمة اي ام ولد كما كان يقال لها وسرى هذا الشغف بالجلائب الى جمهور الخلفاء العباسيين فلم يتم منهم من امة عربية هاشمية الا اثنان فقط ونشأ سائرهم هجيناً اي وليداً من ام غير عربية خلافاً لبني أمية فان الهجنة كانت تقعد بمن كانت امه سبية او جليبة عن تبوأ عرش الخلافة كمسلمة بن عبد الملك

---

١) الاغاني ١١ : ٢٧١

٢) المحاسن والاضداد المنسوب للجاحظ طبعة ليدن ٢٣٦

وغيره من ابناء الخلفاء. وكان كثيرون يرتأون ان ضياع الخلافة كانت علتـــه التزوج بالاجنبيات ولذلك قال ابو العلاء المعري :

أَلم ترَ للخلافة كيف ضاعت اذا كانت بابناء السراري

ولما كان الناس دائماً على دين الملوك عم حب الاغتراب المتزوجين في الاسلام حتى ندر جداً من لم تخالط دمه العربي نطفة اعجمية في ما خلا اعراب البادية في الغالب ومن هنا تعلم ما في ازدهاء المباهين بالعروبة من الافراط والدعوى والمغالطة في الا[illegible]ب الصحيح .

وحكى الاصمعي [illegible] اهل المدينة « كانوا يكرهون اتخاذ امهات الاولاد حتى نشأ فيهم علي بن الحسين [illegible]ن علي بن ابي طالب) ، القا[illegible] محمد (بن ابي بكر) وسالم بن عبدالله (بن [illegible] [illegible] [illegible]موا اهل المدينة فقهاً وورعاً فرغب الناس في السراري »[1] .

ولم يتصف ابناء السراري الهُجناء بالفقـــه والورع فقط بل اشتهروا ايضاً بالشجاعة والاقدام حتى قالوا « مـــا ضرب رؤوس الابطال كابن اعجمية »[2] وعلل عمر بن الخطاب حبَّ التسري بقوله « ليس قوم اكيس من اولاد السراري لانهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم »[3] .

ولعل هنالك سبباً آخر كان الغالب في ايثار الاعجميات على العربيات وهو قول رجل من ابناء المهاجرين : « ان ابناء هذه الاعاجم كأنهم نقبوا الجنة وخرجوا منها واولادنا كأنهم مساجير التنـــانير »[1] (يعني بالمسجرة الخشبة التي يقلّب بها الوقود في التنور وينشاها السخام ولا يخفى صدق هذا الوصف) .

ولهذه الاسباب كلها فشا حب الجلائب الاجنبيات بين طبقات الخاصة والعامة وغلب الدم الاعجمي على الدم العربي في المواليد والانساب وكان تأثيره في الاشراف والخلفاء اشد منه في سائر الناس لقدرة الملوك ورجال الدولة على نقد اثمان الجواري مهما بلغت فضلاً عما كانوا يتحظّون بهن من السبايا والحسان

١) عيون الاخبار لابن قتيبة ٤ـ ٨٠٠ طالع مقالتنا « امهات اشراف المسلمين » في الخزانة الشرقية ٢ : ٩٥–١٠٢

٢) عيون الاخبار لابن قتيبة ٤ : ٣

٣) الكامل للمبرد (مطبعة التقدم) ١ : ٢٥٤–٢٥٥

اللواتي كان العمّال والقوّاد يتقربون بهن اليهم ومن الغريب ميل كثير من الطالبين والهاشميين الى الحبشيات والبربريات على ما اتصفن به من القمة والسواد وقلة الصباحة ولا ريب ان مثل هذه القابلية العجيبة التي كانت تعاقب بين الشهد والحنظل صارت الى ابن المعتز من آبائه واجداده وهي التي أمات عليه قوله الذي ملأه ظرفاً وحناناً :

قلبي وثّاب الى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه

شكل الغلامية وزيّها

اول اوصاف الغلامية تشبهها بالغلام الامرد الذي نسبت اليه قال ابن الرومي :

رب فتاة حرّة المقلد تختال في زي غلام امرد[1]

وقد اجاد ابو نواس في وصفها وبلغ الغاية في تعريفها واشار الى نشأتها فقال :

وشاطرة تتيه بحسن وجه كضوء البرق في جنح الظلام
رأت فري الغلام اتم حسناً واوهى للفسوق وللآثام
فما برحت تصرّفُ فيه حتى حكته في الفعال وفي الكلام
وراحت تستطيل على الجواري بفضل في الشطارة والعُرام
تناف الدف تكرعاً وفتكاً وتلعب للمجانة بالحمام
ويدعوها الى الطنبور حذق اذا دارت معتقة المدام
وتغدو للصوالج كل يوم وترمي بالبنادق والسهام
ترجّل شعرها وتطيل صدغا وترخي كمها فعل الغلام[2]

وهذه الاوصاف مرآة الغلامية في الاسلام وهي نسخة شكلها واخلاقها كما كانت في زمن ابي نواس والشاطرة في اللغة كل امرأة أعيت أهلها خبثاً وفتكاً وعرفت بالتهتك والجرأة والمجانة ولها زي خاص تمشي به مختالة مسبلة كما فعل

---

١) مختارات من ديوانه طبعة الكيلاني ٤٣٨

٢) ديوانه باريس ١٨٣٠ ص ٣٣١

الغلام وربما حاكته ايضاً بتقلد السلاح والتظاهر بالقطوب والارهاب كما وصفه ايضاً ابو نواس بقوله :

وكيف اخشاك يا من يصد عمداً ويهجر
غمر مسبل كم مصدداً لي بخنجر[1]

وهذه الاخلاق داخلة في وصف من قال : الناس اربعة : مليح يتبغض لملاحته...[2] وهذا ... نض كان يقال له التكريه وهو بهذا المعنى غير وارد في اللغة ولا بأس ان نورد ... ض الشواهد التي جمعناها قال الحسن بن هانئ :

شاطرة ان شئت تكرهه اخذ تكرهها بسلطان[3]

وله ايضاً :

فقلنا له والكأس ترمى بكفه وقد وقد الابريق فيها وقرقرا
بربك خمراً او نقيعاً سقيتي فقال من التكريه ماء مزعفرا[4]

وله ايضاً :

وخذ من كف جارية وصيف رخيم الدل ملثوع الكلام
لها شكل الاناث وبين بينا ترى فيها تكاريه الغلام

وللحسين بن الضحاك :

وشاطري اللسان مختلق التكريه شاب المجون بالنسك[5]

ولمصعب الكاتب :

وشاطر ذي احتيال في تكرهه كالغصن يألف فتاكاً وشطارا[6]

ولابن عبد ربه صاحب العقد :

يا ايها الخنث الجفو ن بنخوة وتكره[7]

ولابن الرومي :

ورقاصة بالطبل والصنج كاعب لها غنج مخناث وتكريه فاتك[8]

---

١) ديوانه باريس ٣١٩–٣٢٠
٢) نشوار المحاضرة ٨ : ١٢١
٣) ديوانه طبعة مصر ٣٩٥
٤) ديوانه طبعة مصر ٢٨٥
٥) الاغاني ٦ : ١٧٥
٦) ديارات الشابشتي برلين ٨٥
٧) يتيمة الدهر طبعة مصر ٢ : ٨٦
٨) ديوانه باريس ٢٨٣٠ ص ٣٢٧

واحسن ما جاء في وصف التكريه قول ابي نواس :

احب الغلام اذا كرَّها واجمرته شيئًا امرها
وقد مرّ يخطر في ثوبه وحل الجيوب وما زرّها
وقد حذّر الناس سكينة فكلهم يتقي شرها[1]

وانما عد ابو نواس الضرب بالدف من التكريه والشطارة لانه كان في الغالب من خصائص القيان والمغنيات كما كان الضرب بالطنبور من خصائص المغنين فكانت الغلامية تعاف الدف ترفعاً عن شبه النسوان وتؤثر الطنبور اقتداء بالرجال والغلمان .

وقد امتاز العصر العباسي بكثرة اقبال الناس فيه على الالعاب كالمحارشة بين الكلاب والمناطحة بالكباش والمناقرة بالديوك واللعب بالحمام والرمي بالبنادق والسهام والضرب بالكرة والصولجان وركض الخيل فكانت الغلامية تغشى كل هذه الالعاب وتشارك الذكور بالمراهنة عليها وتجيدايضاً لعب النرد والشطرنج وهو ما اغفل ابو نواس ذكره في ما سبق من ابياته ولكنه المح اليه في ابيات فضّل فيها الغلام على الغلامية وقال في وصفه مشيراً اليها :

غنٍ عن لعب شطرنج ونرد وعن لعب الديوك مع الحمام
بلعب الصولجان ولعب بازٍ وركض الخيل في طلب النعام[2]

وفي قوله : ترجّل شعرها اي تسرّحه إلماع الى انها كانت لا تعقصه ذوائب بل ترسله كشعر الغلام الامرد مطموماً مرجّلاً وتطيل صدغها نظيره وسنبسط الكلام في فصل آتٍ على طم الشعر والجواري المطمومات وقد سبق الايماء اليهن غير مرة .

ولدينا في وصف زي الغلامية وتفصيل لباسها قصيدة اخرى لابي نواس رواها ابن منظور في جملة اخباره وقدّم عليها حديثاً لابن الداية جاء فيه شرح لهذا الزي كافٍ لتصوير الغلامية من قرنها الى قدمها كما كانت تبدو به للناس وتخطر به في القصور والاسواق والمجتمعات قال يوسف بن الداية النحاس وهو شاهد عياني :

« كانت الشعراء تجتمع في كل يوم بباب اسماء بنت المهدي وكان لهم مجلس

١) ديوانه باريس ٤٨٣٠ ص ٣٢٧ ٢) ديوانه باريس ٣٣٣

يجتمع عليهم فيه اهل الادب وكان يحضر ذلك المجلس ابو نواس فنظر يوماً الى وصيفة قد خرجت من قصر اسماء. غلامية شاطرة عجزاء. مطمومة ناهد وعليها اقبية ومنطقة وفي رجليها نعلان فاشتد عجبه بها ومازحها فلم يزل ذلك دهراً ... فقال لي يوماً : امض بنا الى باب اسماء لننظر الى من يحضر اليوم من الشعراء ونتعرف خبراً . ان كان حدث فمضينا فبينا نحن على باب اسماء اذا بالجارية قد خرجت وعليها قباء وشي منسوج بالذهب وسراويل وشي اخضر منسوج بالذهب وعلى رأسها مجبة منسوجة بالذهب ابريسمة وفي رجليها نعل مغشاة بديباج وعليها منطقة ذهب مغرقة على زرياب حرير عريض وقد غابت في خصرها من انهضامه فما يكاد يبين وفي يدها قضيب خيزران تعبث به فدهشتُ وكل من حضر اليها وبهتنا الى براعة جمالها وحلاوتها وحسن زيها ... فاقبلت تخرج وتغيب وتتهادى وتتثنى في مشيها حتى وقفت حيالنا . ونظرت اليه نظراً دلني على ان في قلبها منه شيئاً فانشأ يقول وهي تسمعه وكان اسمها معشوق :

لقد صُبّحت بالخير عين تصبّحت   بوجهك يا معشوق في كل شارق
مقرطقة لم يُجنها سحب ذيلها   ولا نازعتها الريح فضل البنائق
تشارك في الصنع النساء وسلمت   لهن ضروب الحلي غير المناطق
ومطمومة لم تتصل بذؤابة   ولم تعتقد بالتاج فوق المفارق
كأن نخطّ الصدغ فوق خدودها   بقية انفاس باصبع لائق
ندّته بماء المسك حتى جرى لها   الى مشقّر بين اذن وعاتق
غلام والا فالغلام شبيهها   وريحان دنيا لذة للمعانق
تجمع فيها الشكل والزي كله   فليس يوفي وصفها قول ناطق
فطانة زنديق وخطة قينة   بعين الذي يهوى ومنية عاشق
وتقطيب سجنيّ ونكريه شاطر   ونظرة جنيّ ولحظ منافق
لقد كسبت عين عليك ثلاثة   لصاحبها باقية للخلائق(١)

ولا نعلم شعراً او نثراً أجيد فيها وصف للغلامية بين شكلّ وزي هذه الاجادة ولا نخال انه اتفق لاحد من الشعراء. تمثلها بين خَلق وخُلق كما مثلها ابو نواس ولولاه لحرمنا كثير من اخبارها وملحها ومن الشقاء ان لا يكون انتهى الينا من آثار السلف مثل هذه الاوصاف النادرة التي اجتمعت فيها دقة

١) اخبار ابي نواس لابن منظور ١٦٧–١٦٨

التفصيل الى وفاء التمثيل وفاتنا بضياعها او باهمالها فوائد وطرائف شتى لا تُقدَّر لمعرفة حقيقة حياة المرأة بين عادات ومصطلحات وازياء وانباء وغرائب وعجائب وقبل ان نبدأ باستقراء هذه الابيات لنستوضح منها ما غبي علينا من تفصيل زي الغلامية وحليتها نرى من اهم الشؤون ان نستدعي النظر الى مـا ورد له ايضاً في خاتمتها من تعداد نعوتها وحُلاها ليكون تتمة لما تقدم من تعريفها وهو قوله الذي بلغ فيه الغاية من الشرح والجرح :

تجمع فيها الشكل والزي كله فليس يوفّي وصفها قول ناطق
فطانة زنديق ولحظة قينـة بعين الذي يهوى ومنية عاشق
ونقطيب سجنيّ ونكريه شاطر ونظرة جنيّ ولحظ منـافق

ومثل هذا الوصف بالفطنة والفتنة هو دون ريب اصل اصطلاح العامة في اطلاق لفظ الشاطر او الشاطرة على كل من تميز بالحذق والنباعة .

واول ما يجدر التنبيه عليه من زي الغلامية لبسها القُرطق وهو قباء فارسي ذو طاق واحد قصير لا يتجاوز مقدم الساق اشتهر في الخلافة العباسية كانت اكثر ما تلبسه السقاة لخفته ورشاقته في التنقل والخدمة وقد اكثر الشعراء من ذكره في مجالس الشراب ولذلك قـال السري الرفاء في احدى رواهب دير يوسف بالموصل :

ومهفهف لو كنت املك امره بدّلت مُسحق مسوحه بقراطق[١]

اي جعلتها ساقية ومثله قول ابن المعتز

ومقرطق يسعى الى الندمـاء بعقيقـة في درة بيضاء[٢]

وقد اومأ ابو نواس الى قصر القرطق وخفته بقوله : لم يُجنها سحب ذيلها اي انها بلبسها القرطق كالغلام قد تخلصت من ذول ثوب الغانيات وثقل جرّه فبان شطاطها واستقام قدها لقلة ما يزوده ويُجنيه من ذيول ثياب النساء وتعذّر منازعة الريح فضول بنائقها وفي كتب اللغة ان البنائق جمع بنيقة وهي جيب الثوب اي الطوق المحيط بالعنق وهو لا محالة غير المفهوم هنا من هذه اللفظـة لامتناع تمكن الريح من الطوق المزرور وفي ديوان الحسن بن هانئ عدة الفاظ

١) ديوانه في مجموع ٣٠٩٨ في خزانة باريس ١٦٧
٢) شفاء الغليل للخفاجي ١٧٧

مولدة غريبة لا تغني المعاجم شيئاً في تأويلها كانت معروفة في عصره وهي خافية علينا لقلة احتفال شراح ديوانه بتفسيرها والبنيقة احدى هذه الالفاظ ويظهر ان المراد بها هنا مطلق الثوب الطويل وقد وردت بهذا المعنى في بيت اخر للحسن بن هانئ قال فيه :

متخرس دين النصارى دينه ذو قرطق لم يتصل بينائق[١]

وجاءت ايضاً بمعنى الثوب في تاريخ افتتاح الاندلس لابن القوطية (رقم ١٨٦٧ من خزانة باريس ص ١٧) .

وقد مرّ بنا من قول ابن الداية ان وصيفة اسماء خرجت وعليها اقبية (بلفظ الجمع) والقباء هو المعروف اليوم بالقفطان وذلك لان بعض النساء والرجال كانوا يظاهرون بين عدة اثواب لاختلاف الوانها ووشيها حباً بالمباهاة بها وجر اذيالها المشهَّرة .

كاذيال خوذ اقبلت في غلائل مصبَّغة والبعض اقصر من بعض

ومن اغرب ما روي من سخف الرجال بمضاعفة الاقبية ما حكاه الحاتمي عن المتنبي حين دخل عليه قال : فاذا به لابس سبعة اقبية كل قباء منها لون[٢] وهو يكاد الّا يصدّق من مثله فلا غرو بعد ذلك اذا كانت الغلاميات يلبسن احياناً عدة قراطق او اقبية زهوًا واختيالًا .

ومن لوازم القباء والقرطق لكل من لبسها دائماً المنطقة تُشدّ على الحقوين وتغيب في الخصر لتظهر بها دقته وانهضامه واكثر ما يتخذها المتظرفات من الذهب والفضة ومن الحرير والابريسم ووصف ابن الداية منطقة وصيفة اسماء بانها من ذهب « مفرقة على زرياب حرير عريض » وهذا الوصف بمثل هذا اللفظ غامض لا يتبين له معنى صحيح لان الزرياب يطلق على الذهب او ماء الذهب فلا يُرى كيف يكون الذهب مفرقاً على ماء الذهب ولا شك ان هنالك تحريفاً شذ على الناسخ والطابع ولعل الاصل « مفرقة على زريافته اي محلاة على نوع من الديباج والكلمة فارسية مركبة من زر وهو الذهب وبافته او يفته وهو نسيج من القطن .

١) ديوانه باريس ٣١ـ٨٤ ص ١٣٥
٢) وفيات الاعيان طبعة باريس ٧١٩

وقد صرح ابو نواس ان الوصيفة مع مشاركتها للنساء في التصنع والتجمل تركت لهن ضروب الحلي واقتصرت على المنطقة وحدها وبرزت عاطلة مجردة لتكون ابعد عن شبه النسوان واقرب الى الغلمان ولكي يكون تقليدها للغلام اتم واكمل طمت شعرها اى قصت ذوائبها واطرحت تاجها وهو ضرب من ضروب التزين بالشعر فوق المفرق ووضعت موضعه « محبسة » منسوجة بالذهب اي شبه قلنسوة او عمامة حبست بها شعرها وهذه اللفظة بهذا المعنى غير واردة كذلك في كتب اللغة ونقل عن جارية اخرى انها تقلدت السيف ايضاً مع القلنسوة لتبلغ الغاية من الترجل وهي جارية حمدان قال علي بن الجهم : خرجت علينا وقد تقلدت سيفاً محلّى وعلى رأسها قلنسوة ومكتوب عليها :

تأمّل حسن جاريـة يحار بوصفهـا البصر
مـذكّرة مؤنّثـة فهي انثى وهي ذكر[١]

واشهر من تقلد السيف واعتم بالشاشية من الفتيات البانوقة بنت الخليفة العباسي المهدي روى الطبري حديثاً لبعضهم قال : رأيت المهدي يسير وعبدالله بن مالك على شُرطه يسير امامه في يده الحربة وابنته البانوقة تسير بين يديه وبين صاحب الشرطة في هيئة الفتيان وعليها قباء اسود ومنطقة وشاشية متقلدة السيف واني لأرى ثدييها قد رفعا القباء لنهودهما قال وكانت البانوقة سمراء حسنة القد حلوة فلما ماتت وذلك ببغداد اظهر عليها المهدي جزعاً لم يسمع بمثله[٢].

ولا بدع اذا تعددت الغلاميات في عهد العباسيين وفشا زيهن بين الجواري والوصائف ولهنّ مثل هذه القدوة العلية والاسوة الهاشمية والناس كما قيل على دين الملوك .

وما يجب ان لا يُذهل عنه من وصف ابن الداية قوله ان الوصيفة خرجت «وفي رجليها نعل منشّاة بديباج » وقد يشذ عن علم الكثيرين ان النعل كانت من احذية الرجال وتقدّم في الحديث انه قيل لعائشة ان المرأة تلبس النعل فقالت: لعن رسول (صلعم) الرجلة من النساء. لان النعل لا تغطي كل القدم ولا الساق

١) العقد الفريد ٣ : ٣٦٦
٢) تاريخ الرسل والملوك طبعة اروبة ١ : ٥٤٤

فاذا لبستها المرأة انكشفت رجلها وهو مكروه للنساء. وانما كانت تتخذ لهن الخفاف لطول ساقها وسترها ما بين الكعب والركبة فاذا عدلت الغلامية عن الخف واحتذت النعل تكون اتم شبهاً بالغلام وقد أومأ ابو نواس في بعض اشعاره الى مثل هذا التقليد فقال :

مذكَّرة الحذاء اذا استهِلَّت   لاس لا ينازعها الكلام[1]

وللمتظرفات افانين في زي النعال ، بلغن فيها الغاية من الترف والبطر ومن اشهر من اغرب جداً في اتخاذها واسرف كل الاسراف في اختيار نفائس الثياب والطيوب لتجهيزها السيدة ام الخليفة المقتدر حكى بعض من كان يعاملها قال : «كنت اشتري لها ثياباً ربيعية يسمونها ثياب النعال وذلك انها كانت صفاقاً تقطع على مقدار النعال المحذوّة وتطلى بالمسك والعنبر المذاب وتجمد ويجعل بين كل طبقتين من الثياب من ذلك الطيب ما له قوام ونحن نعمل بطاقات كثيرة كذا ونلفّ بعضها على بعض ثم نصمغ حواليها بشيء من العنبر وتلازَّق حتى تصير كانها قطعة واحدة وتجعل الطبقة الاولة بيضاء مصقولة ونخرز حواليها بالابريسم ونجعل لها شُركاً من ابريسم كلها كالشرك المضفورة من الجلود وتلبس قال وكانت نعال السيدة من هذا المتاع لا تلبس النعل الا عشرة ايام او حواليها حتى تخلق وتتفتت وتذهب جملة دنانير في ثمنها وتُرمى فتأخذها الخُزّان او غيرهم فيستخرجون من ذلك العنبر والمسك فيأخذونه»[2].

ويتبين من وصف هذا الزي المذكَّر الذي نُحي منه كل ما تُشتم منه رائحة الانوثة ان الغلامية كانت لا تتميز اصلاً من قرنها الى قدمها بشيء عن الغلام ولذلك قال الطيبي :

لولا نبات الشعر في خده   لم تدر اي الاغيدين الغلام

ولم يفتها ايضاً تقليده في حركاته وشمائله فكانت اذا مشت او خطرت حاكته في ارخاء الكم بدلاً من امساكه وهو من خصائص الفتيان والشطّار حتى في الاندلس وقد شهد به الوزير ابن شُهيد فقال :

---

١) ديوانه باريس ٤٨٣٠ ص ١٨٧.

٢) نشوار المحاضرة للتنوخي ١ : ١٤٣-١٤٤

هبَّ من رقده منكسرًا   مسبلًا للكم مرخيًّا ازرًا(١)

وقد تقدم من قول ابي نواس : « وترخي كمها فعل الغلام »

وقول مروان الصغير :

تمشي كما يمشي الغلا   م وكمها مرخيٌّ ككمه

ولابن الساعاتي من شعراء القرن السادس للهجرة :

وكأن غصن البان في اوراقه   هيفاء خاطرة بكم مسبَل(٢)

وبعد كل هذه المآخذ والسرقات التي اقتصت فيها الغلامية العباسية مثال الغلام وتحلت بحليته واتسمت بسماه لم يبق عليها الا ان تتسمى كذلك باسمه وهو ما فعلته ايضاً كما رأيناه من اتخاذ وصيفة اسما. بنت المهدي اسم معشوق بدلًا لها من معشوقة كما مرّ بنا من مخاطبة ابي نواس لها :

لقد أصبحت بالمجد عين نصيحت   بوجهك «يا معشوق» في كل شارق

وبذلك تم لها الشَّبَه وصحّ الاقتداء. واقترن فيها جسم الغلام واسمهُ بحيث:

تجمع فيها الشكل والزيّ كله   فليس يوفّي وصفها قول ناطق

ولكن بقي هنالك فارق واحد بين الجنسين وهو ما نمّ على البانوقة بنت المهدي من نهود ثدييها ورفعها للقباء. فهل خطر قط لاحدى الشاطرات الفاتنات ان تكون جدًا. لا ثدي لها كما خطر لبعض الغلاميات الاميركيات اليوم ؟

الجواري المطمومات

قد تقدم من قول ابي نواس في الجارية المقصوصة الشعر :

ومطمومة لم تتصل بذؤابة   ولم تعتقد بالتاج فوق المفارق

وله ايضاً :

وناهدة الثديين من خدم القصر   مزرفنة الاصداغ مطمومة الشعر

غلامية في زيّها برمكية   مناطقها قد غبن في لطف الخصر(٣)

وللوزير ابي عامر احمد بن شُهيد الاندلسي من ابيات :

---

١) نفح الطيب ٢ : ٢٢٣

٢) ديوانه طبعة بيروت ٢ : ١١٠

٣) ديوانه باريس ٣٣٥

وربيب قام فينا ساقيا ... كالرشا أرضع بين الربرب
ظبية دون الصبايا قمّصت ... فانثنت غيداء في شكل الصبي
فتح الورد على صفحتها ... وحماه صدغها بالعقرب
فنشت نحوي وقد ملكتها ... مشبه الصفور نحو الثلب[1]

ولابي نواس كذلك :

وذات وجه كأن البدر حلّ به ... يهدي لك الورد والتفاح خداها
مطمومة الشعر في قمص مزرّرة ... في زيّ « امرد » سيّاه كسياها
فلو يراها غلام ثم يلمحها ... عض الانامل لولا اللحظ ادماها[2]

وهذه الشواهد كلها تدل صريحاً على ان الغلاميات لم يقصصن شعورهن الا تشبهاً بالشطّار خصوصاً لان بعض الفتيان كانوا يرسلون ذوائبهم كالفتيات ولا سبيل اليوم لبتّ الحكم في اصل هذه المادة هل نشأت في العراق ام دخلت الشام قبلًا مع الوصائف الروميات على كثرتهن يومئذ لقول عبد الملك بن مروان: من اراد الخدمة فعليه بالروميات[3] ومما يرجح ذلك قول ابن المعتز : قال بعض خلفاء بني امية لرجل من جلسائه : ما يطيب في يومنا هذا ؟ فقال : قهوة صفراء في زجاجة بيضاء تناولنيها مقدودة هيفاء مطمومة لفاء.[4]

ويشبه ان تكون عادة طم الشعور بين فتيات الروم شائعة معروفة في القسطنطينية قبل الهجرة وهو ما رواه ابن عبد ربه ان عمر بن الخطاب لما بعث رسولًا الى هرقل « ذهب الرسول الى باب جبلة (بن الايهم) قال : فلم ازل اتلطف في الاذن حتى اذن لي فدخلت عليه ... فلما رفع الطعام . . . فاذا خدم معهن كراسي مرصعة بالجوهر . . . واذا عشر جوار قد اقبلن مطمومات الشعر متكسرات في الحلي عليهن ثياب الديباج »[5] فيترجح من ثم ان الجواري المطمومات وردن الى الشام من ديار الروم ثم سرى هذا الزي من الشام وعم العراق والشرق حتى شغف به الخلفاء كالمتوكل على الله قال ابن حيان ان بعض

١) الذخيرة لابن بسام طبعة مصر ١ : ١٧٨
٢) ديوانه طبعة مصر ٣٦٠
٣) تحفة العروس لابي محمد عبدالله التيجاني ٤٣
٤) فصول التماثيل ٥٥
٥) العقد الفريد طبعة مصر ١٩٤٦ (٢ : ٥٧-٥٩)

تجار اليهود جا. برّ بشتر بعد الحادثة (سقوط المدينة بيد النصارى) ملتمساً فدية بنات بعض الوجوه من نجا من اهلها حصان في سهم قوس من الرابطة فيها كان يعرفه قال : فهديت الى منزله واستاذنت عليه فوجدته جالساً مكان رب الدار مستويًا على فراشه رافلاً في نفيس ثيابه والمجلس والسرير كما خلفها ربها يوم محنته لم يغير شيئاً من رياشها وزينتها ووصائفة مطمومات الشعور قائمات على رأسه ساعيات في خدمته (نفح الطيب ٢ : ٥٧٥) .

فنون الغلاميات في تزيين الرأس والوجه

تقدم من شهادة الاغاني ان المترجلات البدويات كن يتعمّمن كالرجال ومر بنا من رواية الطبري ان البانوقة ابنة الخليفة المهدي كانت تتقلد السيف وعليها الشاشية ولبس غيرها « الجبة والقلنسوة » ولما اتخذت زبيدة الجواري الغلاميات لابنها الامين قال العبدي الخراساني « عممت رؤوسهن » ويظهر ان النساء عامة درجن على اعتياد العمائم كالرجال واشتهرن بها في دولة المماليك حتى كانت الولاة تضطر احياناً الى المناداة بالنهي عن هذه العمم قال المقريزي وفي المحرم سنة ٦٦٢ (١٢٦٣ م) نودي بالقاهرة ومصر ان امرأة لا تتعمم ولا تتزيا بزي الرجال ومن فعل ذلك بعد ثلاثة ايام سُلبت ما عليها من الكسوة[١] وفي سنة ٦٩٠ (١٢٩١ م) في شهر رمضان امر الامير علم الدين الشجاعي ان لا تخرج امرأة وعليها عمامة بل مقنعة كالعادة القديمة[٢] ولكن لا نعلم كيف كانت تكوَّر هذه العمائم على رؤوس النساء ولا من اي الاثواب او المنسوجات كانت تصطنع غالباً في في ما خلا الشَّرب واللانس ولا شك ان اكثر الجواري والغلاميات كنَّ يتجملن بالوشي من الحرير والابريسم ولا شك ان المتنبي عانى بعضهن وعناهنَّ بقوله :

لبسن الوشي لا متجملات   ولكن كي يصنَّ به الجمالا

وفي ايام المماليك في الدولة الجركسية قلد النساء الرجال في اتخاذ الطواقي ايضاً قال المقريزي : يكون ارتفاع عصابة الطاقية منها نحو ثلثي ذراع واعلاها

١) السلوك باريس ١٧٢٦ ص ١٥٤

٢) ذيل مرآة الزمان لليونيني . لندرة add. 23331 f 72 b

مدوّر مقبَّب ... ويشبه الرجال في لبس ذلك النساء لمعنيين احدهما انه نشأ في اهل الدولة محبة الذكران فقصد نساؤهم التشبه بالذكران ليستملن قلوب رجالهن فاقتدى بهلهن في ذلك عامة نساء البلد"[١].

وقد بحثنا كثيراً فلم نوفق للعثور على شاهد واحد يستدل منه على رواج العصائب بين الغلاميات وكان منها نوع يقال لها العصائب المكللة ابتدع في ايام المهدي قال ابو الفرج في الاغاني : كانت عائشة بنت المهدي شقيقة ابرهيم جميلة الصورة الا انه كان في جبهتها اتساع مفرط فمن اجلها اخترعت العصائب المكللة[٢] .

ولما كانت الغلاميات مطمومات كما سبق من وصفهن وكان غاية ما يطمحن اليه محاكاة الفتيان لم يبقَ لهن بعد اطراح الذوائب من صنوف الامتشاط والتزيين بالشعر الا تصفيف الطرة وهو زيّ الشطار كما وصف به ابو نواس لما توجه الى مصر قالوا خرج « في زي الشطار وتقطيعهم بطرّة قد صفَّفها وكمّين واسعين وذيل مجرور ونعل مطبق»[٣] وهو الزي الذي اختارته زبيدة للغلاميات اللواتي اهدتهن لابنها محمد الامين « وجعلت لهنَّ الطرر والاصداغ » .

وفي الشعر اشارات واوصاف كثيرة للصدغ وتشبيه بالنون والواو والصولجان والعقرب والزرفين اي الحلقة على غير تفاوت بين الغلام والغلامة ولابي نواس في احدى وصائف القصر :

وناهدة الثديين من خدم القصر　　　مزرفنة الاصداغ مطمومة الشعر[٤]

وله فيهنَّ ايضاً .

اصداغهن معقربا　　　ت والشوارب من عبير[٥]

والديك لجن :

اقبلن والاصداغ في　　　وجناتهن معقربات[٦]

---

١) الخطط ٣ : ١٦٩

٢) تحفة العروس للسيوطي رقم ١٥٩٣ مكتبة دار الاوقاف بحلب .

٣) اخبار ابي نواس لابن منظور ٢٣٥ ونهاية الارب للنويري ٢ : ٢٠٨

٤) ديوانه باريس ٣٠٨٢ص٣٣٥

٥) كتاب بغداد لابن طيفور ٣٠٢

٦) نهاية الارب للنويري ٢ : ٧٨

والناشئ الاصغر :

لك صدغ كأنما نونه نون كاتب
يلدغ الناس اذ تعقرب لدغ العقارب

ولابن المعتز في الاصداغ الملوية كالصوالج :

امن سبج في عارضيه صوالج معطفة تفاح خدّيه تضرب

وللثعالبي :

وصولجان المسك في خده متخذ حبة قلبي كُرَة[1]

وربما أطيل الصدغ بالطيب المُذاب وصف به نواس غلاماً شاطراً فقال :

قل لذي الصدغ المطوّل ولذي الشعر المرجّل
ولذي التكريه في المشية والنذر المحلل[2]

ونعت به ايضاً فيما سبق غلامة شاطرة فقال :

ترجّل شعرها وتطيل صدغاً وترخي كمها فعل الغلام

وتقدم له ان وصيفة اسماء كانت تطيل صدغها وتصله فوق خديها بماء المسك وهو قوله :

كأنّ مخطّ الصدغ فوق خدودها بقية انقاس باصبع لائق
تَدَنّهُ بماء المسك حتى جرى لها الى مستقرّ بين اذن وعاتق

واهم ما كانت تزين به وجهها من المحسنات في اعتقادها :

١ تنميص الحاجبين اي حف ما خرج عن القوس من الشعر وخطها بالمداد والإثمد .
٢ صبغ الشفتين بالحمرة .
٣ خط الشارب بالمسك واخلاط من الطيب .
٤ الكتابة والتصوير على الخدين .

وسنشير في ما يأتي الى كل منها

١) نهاية الارب ٢: ٧٣-٧٤
٢) ديوانه باريس ٣٠ ٦٨٣ ص ٦٥

خط الشارب بالمسك واخلاط من الطيب

كان لا بد للغلاميات لبلوغ الغاية والنباية في التشبه بالغلمان من محاكاة الشارب بخط في موضعه ممتدّ على الشفة كانه الشعر فكنّ يتيان هذا الخط اما بالمسك كما في قول الاسعد بن بليطة المذكور آنفاً « وشاربك المخضرّ بالمسك قد ُخطًا واما بالغالية وهو قوله ايضاً من القصيدة نفسها :

غلامية جاءَت وقد جعل الدجى … لخاتم فيها فصّ غالية خطّا
فقلت احاجيـ[illegible] بما في جفونها … وما في الشفاه اللعس من حسنها المعطى
فحمرة العينين [illegible] سكرة … متى شرعت الحاظ عينيك اسقطا
ارى نكهة المسواك [illegible] … وشاربك المخضر بالمسك قد خطا
عـ[illegible] قزح قبلته فاخال … على الشفة اللمياء قد جاء مختطا

ونظيره قول ابي نواس في وصف غلاميات في زمانه :

صور الـسك مؤنثات … الدل في زي الذكور
أرهفن إرهاف الاعنّة والخمائل والسيور
اصداغهن معقربا … تٌ والشوارب من عبير[2]

وفي حكاية ابي القاسم البغدادي : شارب كخضرة الريحان :

شارب من زبرجد وثنايا … من اقاح وريقة من عقار (ص ٥٢)

ومن الغلاميات اللواتي اشتهرن بخط الشارب الزرقا. جارية ابن رامين . قال بعض المدنيين : اتيت منزل ابن رامين فوجدت عنده جارية رفع ثدُيا قميصها لها شارب اخضر ممتدّ على شفتها امتداد الطراز كانما خُطّت طرتها وحاجباها بقلم لا يلحقها في ضرب من ضروب حسنها وصف واصف فسألت عن اسمها فقيل هذه الزرقا.[3] .

الكتابة والنقش على الخدين

كانت المرأة الغلامية لا تخشى الاسراف والغلو في التزين والتروق تقربا من القلوب واستدعاء للانظار فلم تكن تجترئ بالتفنن في عقد الشعر وارسال

١) نفح الطيب طبعة ليدن ٢ : ٤٥٤
٢) السادس من كتاب بغداد لابن طيفور ٣٠٢
٣) الاغاني ١٣ : ١٣٢-١٣٤

طرره على الجبين وعقربة الصدغين بل كانت تتخذ الخدين احيانا كالطومار او الجدار وتمهد للمواشط ان تكتب عليه ما تشا. من اسما. المحبين او تنقش عليه بعض صور الهوامّ القابلة للزخرفة والتفنن في الرسم المعروفة بنفث السموم القتالة كالحية والعقرب روى المسعودي ان المتوكل الخليفة العباسي قال لعلي بن الجهم الشاعر المشهور : « ويلك يا علي دخلت فرأيت قينة قدكتبت في خدها بالمسك « جعفرًا » فما رأيت احسن منه فقل فيه شيئاً فقلت يا سيدي : او انا ومحبوبة (وصيفة أهديت للمتوكل من الطائف كانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس) قال . بل انت ومحبوبة . قال فدعوت بدواة وقرطاس فسبقتني الى القول ثم اخذت العود فترنمت ثم خفقت عليه حتى صاغت له لحناً وتضاحكت ملياً ثم قالت : يا امير المؤمنين تأذن لي ؟ فاذن لها فغنّت :

وكاتبة في الخد بالمسك جعفرا بنفسي مخطّ المسك من حيث أثرا
لئن اودعت خطّاً من المسك خدها لقد اودعت قلبي من الوجد اسطرا
فيا من لمملوك يظل مليكه مطيعاً له في ما اسرّ واجهرا
ويا من لعيني من رأى مثل جعفر سقى الله صوب المستهلّات جعفرا[1]

ولابي طاهر اسمعيل بن علي المهدوي ببغداد في جارية صُوّر على خدها بغالية صورة حيّة :

تبدت لنا من جانب السجف غادة لها الشمس وجه والكواكب خال
فقلت وقد لاح الهلال بوجهها متى طلعت شمس الضحى وهلال

الهلال الاول من اسماء الحية والهلال الثاني هلال الافق[2] .

ولابن الساعاتي عدة ابيات ذكر فيها تصوير الحية والعقرب في صفحات الخدود منها .

أرأيت درياقاً كذوب رضابها بعث الصدى وهو الزلال السلسل
وكحية او عقرب في خدها ابداً تسيء فعالها وتقبل[3]

ومنها :

---

١) مروج الذهب بهامش الكامل ٩ : ١٥٣

٢) ذيل تاريخ بغداد للدبيثي باريس ٢١٣٣ ص ١٠٥

٣) ديوانه ١ : ٦٥

وخريدة بيضاء ليلة شعرها — من هجرها وجبينها من وصلها
نقشت مواشطها على وجناتها — صورًا تبدي الغرام لاجلها
او ما عجبت لحية في جنة — دوني تفوز بجانها وبظلها
فحذارها اني استطعت فقبلها — مكرت بآدم اختها في مثلها[1]

ومنها ايضاً :

يا ضرة القمرين في شرفيها — من اي شيء فيك لم اتعجب
كتبت بخديك المواشط فتنة — عن عموم هواك من لم يكتب
ولقد سمعت وما سمعت بكاتب — شيئاً على صفحات ماء مذهب
جاء الكليم بآية من حية — ولذاك جئت بجية وبعقرب[2]

ومن هذه الشواهد يستدل على ان المواشط في الشرق كنّ على جانب من معرفة الكتابة والرسم والنقش حاذقات ضروب التحسين والترويق والتطبيب يفعلن ما تفعله في الغرب معاهد الاصلاح والتزيين المعروفة باسم : Institut de beauté

تنميص الحاجبين اي نتف ما خرج عن القوس من الشعر وخطها بالمداد والاثمد

من الغريب الذي يقضي منه العجب ان نساء البدو كنّ ينتمصن حواجبهن بجف ما تجاوز القوس من الشعر لتزجيجها كما يدلّ على ذلك ورود هذه اللفظة في اللغة واستشهدوا على ذلك بقول الراجز :

يا ليتها قد لبست وصواصا — وغمّصت حاجبها تنماصا[3]

وفي الحديث . لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيّرات خلق الله تعالى[4] وكانت الغلاميات يصلحن قوس الحاجبين بالخطّ حوله بالمداد والاثمد قال دعبل الخزاعي يهجو جاريته غربال :

تخطّط حاجبها بالمداد — وتربط في عجزها رفغة[4]

---

١) ديوانه ٦٥
٢) ديوانه ٦٦
٣) لسان العرب
٤) صحيح البخاري ٧ : ٥٨

صبغ الشفتين بالحمرة

كان العرب يستحسنون السمرة في الشفاه وهي اللمى واللعس والحوة قال ذو الرمة :

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي انيابها شنب
(فخر السودان على البيضان الجاحظ ليدن ٧٣)

واجاد ابن المعتز بتشبيه ضياء الصبح بابتسام الشفة اللمياء. فقال :

لما تعرى افق الضياء مثل ابتسام الشفة اللمياء[١]

وانما حسن اللمى لانفراجه عن بياض الثغور وهو ما المع اليه ابن الساعاتي بقوله :

واللمى لم تكن لتحمده الالسن جما لولا بياض الثغور[٢]

وربما علا اللمى حمرة ذهبية من الدم او الصبغ كما في تشبيه كشاجم بقوله في الزهر :

كأن الشفاه اللعس منها خواتم من التبر مختوم جن على الدر[١]

وكانوا يحبون مثل هذه الحمرة الظاهرة في عداد ما يجمل عندهم منها في المرأة فقالوا : من جملة ما يستحسن من المرأة حمرة اربعة : لسانها وخدها وشفتها وتشرب بياضها بحمرة . وفي رواية اخرى : اللسان والشفتان والوجنتان والبنان[٣] . برد الاكباد في الاعداد للثعالبي رقم ٣١٧ ادب دار الكتب المصرية .

ولذلك كانت المتظرفات يخططن فوق شفاههن بخط احمر كما تفعل النساء اليوم وهو ما اشار اليه الوزير ابو عمر واحمد بن شهيد الاندلسي بقوله في وصف جارية : كأنما ثغرها من جوهر وشفتها خيط حرير احمر[٤] ومن الابيات الواردة في وصف الشفة اللمياء الحمراء قول كشاجم :

عذبت في الرشف منه شفة مصها اطيب من نيل الامل

---

١) نهاية الارب للنويري ٢ : ٥٨
٢) ديوانه ٢ : ١١٣
٣) العنوان في مكايد النسوان لابن التنبوني الابوجري Or. 4640 f° 89
٤) يتيمة الثعالبي طبعة مصر ٢ : ٤٣ .

وعلتهـا حمرة في لعس تستعير اللون من ورد الخجل
مي فيا خلت اثار دم من فؤادي علّ فيه ونهل[١]

ولابن سكرة الهاشمي في وصف قبلة من شفة حمراء :

كأنني اذ لثمت فاك بها لثمت تفاحة من الذهب
(نهاية الارب ٢ : ٥٩)

كتب بعض المجـ... الى صاحب له يستهويه جارية وقال في بعض اوصافها : تكون حمراء الشفتين مفلجه ...ايا (مطالع البدور ص ٢٦٦) .

اجمع اهل المعرفة ان الذي يحـ...ـن المرأة من الحمرة اربعة اشياء . منها : حمرة الشفتين (مطالع البدور ٢٦٨) .

وفي اجتماع الحمرة والسمرة حُسن صح معه لابن بلّيطة الاندلسي تشبيه الشفة بتقبيل قوس قزح في قوله مخاطباً احدى الغلاميات :

محمّرةَ العينين من غير سكرة متى شربت الحاظ عينيك اسفنطا
ارى نكهة المسواك في حمرة اللمى وشاربك المخضرّ بالمسك قد خُطا
عسى قزح قبّلته فاخاله على الشفة اللمياء قد جاء مختطا[٢]

وكثيراً ما كانت الحمرة تكسو الشفة اللعساء فلا يبين منها الا لون الدم ولذلك جاء في خبر الذلفاء وصفتها . وفم كأنه جرح يقطر دما[٣] وهو ما نُقل ايضاً في نعت ابنة عوف بن علم الشيباني . شفتان حمراوان كالورد يحلبان ريقاً كالشهد[٣] ونظيره قول الازدي في حكاية ابي القاسم البغدادي : ثغر كالاقحوان وشفتان كالمرجان او الارجوان .

ومن احسن ما روي في مدح الشفاه الحمر ما انشده ابو الفرج الاصبهاني في كتاب النساء :

فما انسَ لا انسَ منها اشارة بسبابة اليمنى على خاتم الفم
واعلنتُ الشكوى اليها فاومأت حذاراً من الواشين ان لا تكلم
فلم ارَ شكلاً واقعاً فوق شكله كعنّابة يرمى بها فوق عندم

١) نهاية الارب للنويري ٢ : ٥٨
٢) مطمح الانفس لابن خاقان طبعة القسطنطينية ٨٣-٨٤
٣) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣ : ٢١٥ و٢٣٥

وكان الرجال انفسهم لا يحجمون احياناً عن الاستعانة بمثل هذا الصبغ القاني لتبريق شفاههم وتطريتها اما للتزيين والتظرف فعل بعض الفتيان والمخنثين واما لتمويه لونها وستر شحوبها بعد الصيام والبكا. كبعض الزهاد والعلماء. فيما قيل مثل منصور بن المعمر نقل عنه الذهبي انه «صام اربعين سنة وقام ليلها وكان يبكي الليل كله فاذا اصبح كحّل عينيه وبرّق شفتيه ودهن رأسه» وهو ما يبعث على العجب والاستغراب ولا ريب ان تبريقه كان بنفس الصبغ الذي كان يتجمل به المتبرجات والمخنثون ومن ثم يجب ان يصلح في هذا المعنى قول الاغاني عن الغريض المغني انه «كان يصنع نفسه ويترفها» كما في طبعة بولاق (٢ : ١٢٨) او «يصنع نفسه ويبرقها» كما في طبعة الدار (٢ : ٣٦٠) بدلًا من «يصبغ شفته ويبرقها» وهو الصواب الذي لا شك فيه .

٥

لا سبيل اليوم لمعرفة مقدار من كان بين هؤلاء السبايا والجواري الاماء من المتظرفات المتشبهات بالغلمان في الشكل والزي قبل ان يطلق عليهن لقب «الغلاميات» في الدولة العباسية وهل كان بعضهن على هذه الصفة في مواطنهن ام اكتسبنها في الحضارة الاسلامية ويظهر ان الروميات بينهنّ كنّ قد اعتدن الطمّ اي قص الشعر والترجل في بلدانهن كما سيجي. وقد خلت ايدينا اليوم من اخبار النسا. الامويات ولم يُقيَّض لهنّ من يشيد بمحاسنهن ويجيد وصفهن والتشبيب بهن كالحسن بن هانئ لانصراف شعراء بني امية في الغالب الى فنون الشعر المبتذلة كالفخر والمديح والهجاء والغزل والرثاء والاقلال جدًا من نعت الحانات والدساكر ووصف المجالس والمجتمعات التي كانت تتجلى وتتبارى فيها المترجلات والشاطرات وعلى كل حال فما لا يُرتاب فيه ان الغلامية في الاسلام لم تبلغ الغاية والنهاية في التفنن والاغراب الا في ايام العباسيين لاقبال الخلفاء والناس على ايثارهن والاعجاب بهن كالمهدي والرشيد والامين والمأمون والمتوكل والقاهر كما سنشرحه قريبًا واما في الشام فكانوا كما قال الجاحظ اشهى النساء عندهم الروميات وبنات الروميات[1] لكثرة ما يرد منهن من سباء الحروب

١) كتاب فخر السودان على البيضان طبعة ليدن ٧٩

ورقيق النخاسين وتخلق القوم في الغالب باخلاق الروم البيزنطيين مع ما ورثوه عنهم من احوال المعيشة وفنون الحضارة .

وقد خلت كما قلنا اشعار الخلافة الاموية من كل نعت للمرأة الغلامية ولا بدع لان القوم وقتئذ كانوا احدث عهد بالبداوة واقرب الى الفطرة للتنزه عن كل ما يخالف السجية من آفات الاجتماع والاختلاط فلا تجد في اشعار الجاهليين والمخضرمين من تصبَّى غير الغواني والمها حتى اذا اقبلت دولة المسوّدة والقت مقاليدها الى الاعاجم من علوج خراسان تغلب معها السواد على الالوان والابدان وسقطت الحشمة من النفوس والرؤوس وكان اول من اضرم هذه النار واستدرج القوم الى هذه المخزية فيما حكاه الجاحظ في كتاب المعلمين ابو مسلم صاحب هذه الدولة «حين سنّ لتلك العساكر الّا يصحبها النساء. خلافاً لجند بني امية الذين كانوا لا يفارقون الظعائن في حل وترحال ولما لم يكن بد لتلك الجيوش من يتولى خدمتهم ارتبط لهم ابو مسلم الغلمان لخفة مؤونتهم وطالت صحبتهم لهم فطالت فتنتهم بهم»[1] وبقيت هذه الشهوة كامنة في القلوب كل خلافة المنصور وبعض ايام المهدي والهادي حتى كان الرشيد فازدادت في وزارة البرامكة انتشاراً ولكن حالت هيبة الخلافة ووقارها دون المكاشفة بها في بغداد فكان القوم اذا ارادوا الاجتماع على معاقرة الشراب ومقارضة التغزل بالغلمان يتسترون في البصرة هرباً من الشرطة والسجن الى ان جاء احمد بن اسحق الخاركي استاذ ابي نواس فجاهر ولم يتكتم وتبعه تلميذه شيخ هذا المذهب فوضع القناع وصاح ملء الاسماع .

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرًّا اذا امكن الجهر

وبعد ان غبر حيناً وهو ينشد :

حب الغواني من الرشاد ولو يكاد يدني المحب من أجله
فتنّ بالحسن يوسفا وكذا داود حتى بنى على رجله
وزينب يتمت محمدنا فبان زيد وصار من بدله[2]

---

٢) ديوان ابي نواس ٣٠ـ٨٣ خزانة باريس ١٨٦
٢) ديوان ابي نواس ٣١ـ٨٣ خزانة باريس ٦٢

ما لبث ان تلوّن وتقلب وغني بالظبي كما قال مخاطباً للارنب :

وعاذلـة تلوم على اصطفائي غلاماً واضحاً مثل المهاة
وقالت قـد خـبرت ولم تـوفق لطيب هوى وصال الغانيات
أأختار البحار على البراري وحيتاناً على ظبي الفـلاة
دعيني لا تلوميني فـاني على ما تكرهين الى الممات
بذا اوصى كتاب الله فينا بتفضيل البنين على البنـات[1]

وقد اقرّ الحسن بن هانئ ان الخارکي كان المجلي في هذه الحلبة وهو ما رواه عبدالله بن المعتز في كتابه الـذي ألفه في الاختيار من شعر الشعراء. وحكى عن ابن الداية انه سمع ابا نواس يقول : ما مجنت ولا خلعت العـذار حتى عاشرت احمد بن اسحق الخارکي وكان غير الناس قبلـه بالبصرة دهرهم الاطول يكاتمون بالمجون في نعت الخمر وذكر الـذاكر واظهار الفسق حتى جاء الخارکي فجاهر بالقول في ذلك ولم يحتشم منهم فامتثلنا نحن ذلك ومن جاء بعدنا ممن يذهب مذهبنا عيال علينا[2]

وكان الامين قد عرف ابا نواس ونادمه فلما صارت الخلافة اليـه ادناه وطلب الخصيان وابتاعهم وغالى بهم وصيّرهم لطعامه وشرابه وامره ونهيه وفرض لهم فرضاً وسماهم الجرادية وفرضاً للحبشان وسماهم الغرابيـة ورفض النساء الحرائر والاماء. وفي ذلك يقول بعضهم من جملة ابيات خاطب بها الرشيد المدفون في طوس واشار الى الامين والخصيان قائلاً :

لهم من عمره شطر وشطر يعاقر فيه شرب الخندريس
وما للغانيـات لديه حظ سوى التقطيب والوجه العبوس

وجرى الناس على دين الامين في ايثار الغلمان والخصيان وعمت الرغبـة والتنافس في اقتنائهم وايثارهم على الجواري وصارت الخلافة الى المأمون فعاد اليها البهاء والى القائم بها الوقار وبقيت الحال على ذلك او قريباً منه الى ان قعد المتوكل فسلك مسالك الامين وزاد عليـه واشخص ابا العنبس الصيمري وقـال له : انت مني بمنزلة ابي نواس من عمي وطالب الشعراء ان يشبّبوا

١) ديوانه ٤٨٣٠ باريس ٢٩٤
٢) ديوان ابي نواس ٤٨٣٠ خزانة باريس ٢٩٤

بالغلمان وقد كان البحتري في اول ما وصل اليه شبّب بالاناث في قصيدته التي اولها :

منى النفس من اسماء لو تستطيعها   بها وجدها من غادة وولوعها

فاعرض عنه وقال هذا الشاعر يتهوّع مما قال : عُها عُها فقصده البحتري بمثل قوله :

مني وصل ومنك هجر   وفيّ ذلّ وفيك كبر

فحظي عنده وصار من ندمائه ودخل اليه مروان الصغير فوقف بين يديه فقال : هات ودعني من ذكر اسماء وسلمى فانشده :

فدّ الحبيب ولا تسمّه   اضحى ومهك غير همّه

فأستوى قاعداً وقال : زد على هذا فقال :

بيضاء خالط وجهها   ورد فكيف لنا بشمّه
تمشي كما يمشي النـلا   م وكمّها رخى ككمّه
ولأنت اشبه بالغزا   ل سوالفا منه بأمّه
ذمّ الخلافة جعفر   ما زمّها احد كزمّه
يا حية الله التي   دان الطغاة لخوف سمّه
ما لابن بنت مدخـل   بين ابني وبين عمّه

فقال : لو كان تشبيك مذكراً لاصحبتك مثل ما اصحب جدي الرشيد جدك مروان ثم وصله بخمسين الفاً[1] .

ومما تقدم يتحصل ان اول من اعان على تفشي هذا الداء الخبيث في الدولة العباسية وحمل الشعراء على احلاله محله من الغزل والنسيب وجعل للغلام هذه المنزلة الفاضحة في القلوب التي اغرت بمنافسته ومحاكاته في زيه وشكله وحركاته وخصائصه هم رجال بني العباس وبعض خلفائهم والناس كما قيل على دين الملوك ولذلك لما عاينت زبيدة ام الامين ولع ابنها بالخدم والخصيان واعراضه عن الحرائر والاماء ارادت مداواته بنفس الداء فاختارت له الجواري الحسان وابرزتهن له في زي الغلمان وهذا نص ما رواه المسعودي في اصل اتخاذ الغلاميات قال :

١) ديوان ابي نواس ٥٨٣٠ خزانة باريس ٢٠٠-٢٠١

« ذكر محمد بن علي العبدي الخراساني الاخباري وكان القاهر به آنساً قال : خلا بي القاهر فقال : تصدقني او هذه ؟ واشار الى الحربة فرأيت والله الموت عياناً بيني وبينه فقلت : اصدق يا امير المؤمنين . . . قال : اخبار ام جعفر زدني منها . . . قلت : لما افضى الامر الى ولدها يا امير المؤمنين قدّم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم ككوثر وغيره من خدمه فلما رأت ام جعفر شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه وعمّت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والاصداغ والاقفية والبستهن الاقبية والقراطق والمناطق فبانت قدودهن وبرزت اردافهن وبعثت بهن اليه وابرزهن للناس من الخاصة والعامة فاتخذ الناس من الخاصة والعامة الجواري المطمومات والبسوهن الاقبية والمناطق وسمّوهن الغلاميات فلما سمع القاهر ذلك الوصف ذهب به الطرب والسرور والفرح ونادى باعلى صوته : يا غلام قدح على وصف الغلاميات فبادر اليه جوار كثيرة قدهن واحد توهمتهن غلماناً بالقراطق والاقبية والطرر والاقفية ومناطق الذهب والفضة فاخذ الكأس بيده فاقبلت اتأمل صفاء جوهر الكأس وفورية الشراب وشعاعه وحسن اولئك الجواري والحربة بين يديه فاسرع في شربه وقال : هيه . . . »[1]

ومن اشهر من عرف من غلاميات الامين عَريب المغنية الشاعرة الماجنة حظية الخلفاء . وهي في بعض الروايات بنت جعفر بن يحيى البرمكي سُرقت وهي صغيرة لما انتهب البرامكة[2] وزعموا ان المأمون قبّل في بعض الايام رجلها[3] قيل انه لم يكن بين النساء العب منها بالشطرنج والنرد حدث المعتمد قال : حدثني عريب انها كانت في شبابها يُقدَّم اليها برذون فتطفر عليه دون ركاب[4] وقد وضع عبدالله بن المعتز ديواناً في اخبارها[5] وحكت هي عن نفسها قالت : كنت لمحمد الامين وصيفة في عداد الوصائف البس قباء ومنطقة واقوم على راسه وسنّي اذ ذاك سبع عشرة سنة[6] وكان لبس القباء والمنطقة يومئذ زي الغلام

١) مروج الذهب طبعة باريس ٨ : ٢٨٩—٣٠٠
٢) الاغاني طبعة بولاق ١٨ : ١٧٧
٣) النويري نهاية الارب ٥ : ٩٨
٤) الاغاني طبعة بولاق ١٨ : ١٧٥ و ١٨٧
٥) النويري نهاية الارب ٥ : ١٠٨
٦) الديارات للشابشتي نسخة برلين ق ٧٠

وحكى جحظة في هذا المعنى قال : دخلت الى عريب مع شروين المغني ذي العُبيس بن حمدون وانا يومئذ غلام على قبا. ومنطقة فانكرتني وسألت عني فاخبرها شروين وقال : هذا فتى من اهلك هذا جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد وهو يغني بالطنبور[١] .

وما لبث الناس ان شغفوا بمثل هؤلاء الوصائف المقرطقات المنطّقات المتشبهات بالغلمان رشاقة وخفة[٢] واختاروهن لمجالس الشراب وادخلهن الملوك والامراء في جملة الصلات والهبات الطائلة . حدث حماد بن اسحق الموصلي قال : « كان ابي ذات يوم عند اسحق بن ابرهيم بن مصعب فلما جلسوا للشراب جعل الغلمان يسقون من حضر وجاء غلام قبيح الوجه الى ابي بقدح نبيذ فلم يأخذه ورآه أسحق فقال له : لِمَ لا تشرب ؟ فكتب اليه ابي :

أصبح نديمك اقداحاً تسلسلها ... من الشمول وأتبعها باقداح
من كف ريم مليح الدل ريقته ... بعد الهجوع كمسك او كتفاح
لا اشرب الراح الا من يد رشاً ... تقبيل راحته اشهى من الراح

فضحك وقال : صدقت والله ثم دعا بوصيفة كأنها صورة تامة الحسن لطيفة الخصر في زي غلام عليها اقبية ومنطقة فقال لها . تولّي سقي ابي محمد فما زالت تسقيه حتى سكر ثم امر بتوجيها وكل ما لها في داره اليه فحملت معه[٣] .

ومن اخبار ابي نواس مع الخصيب امير مصر انه اقدم بعض التجار من الروم بغلمان فعرضوا على الخصيب . . . واتى بعض التجار ايضاً ومعه جوار روميات بديعات الحسن غريبات الجمال فعُرضن عليه فاذا فيهن وصيفة غلامية عجيبة احسن من فيهن فدعا ابا نواس فقال : أرأيت في الغلاميات التي وصفتهن مثل هذه قط ؟ قال : لا قال : هي لك[٤]

وقد نبّهنا سابقاً على ان الغلاميات كنّ غالباً من الوصائف والإماء

١) الاغاني ١٨ : ١٧٨
٢) قطب السرور في اوصاف الخمور للرقيق النديم خزانة بريتيش موزيوم Or. 3628 f° 132
٣) الاغاني ٥ : ٨١
٤) اخبار ابي نواس لابن منظور ٢٦١

الاجنبيات دون الحرائر من الاشراف لانهن كنّ يترفعن عن مثل هذا الابتذال والتقليد » ووصفت المتوكل ريطة بنت العباس بن علي فحملت اليه فتزوجها ثم سألها ان تطمّ شعرها وتتشبه بالمماليك فأبت عليه فاعلمها انها ان لم تفعل فارقها فاختارت الفرقة فطلقها[١]

ولا يعرف بالضبط متى نشأ الزي الغلماني في الحضارة العربية وهل حدث في اواخر الدولة الاموية ام انه دخل العراق مع العباسيين واشياعهم من الفرس والخراسانيين ولم نجد اقل الماع اليه في عهد السفاح والمنصور ولعله كان مكتوماً غير متداول جهرًا لمكان المنصور الذي كان يتشدد في اللباس والاقتصاد وقد عاقب مرة احد كتابه لانه شاهد سراويله من الكتان[٢] ونشا ابنه المهدي على غير ما كان ابوه عليه من الغيرة والحزم واليقظة وسمع قول ابي العتاهية :

ألا ان جاريـة للاما م قد أسكن الحسن سربالها
مشت بين حور قصار الخطا تجاوب في المشي اكفالها
وقد اتعب الله نفسي بها واتعب في اللوم عذالها[٣]

فلم ينكر عليه هذه القحة وكاد يهبها له ولم يرَ اقل بأس في ابراز ابنته البانوقة[٤] لعيون الملإ « في هيئة الفتيان عليها قباء اسود ومنطقة وشاشية متقلدة السيف » تسير بينه وبين صاحب الشرطة[٥] فلا بدع اذا تكاثرت الغلاميات في زمانه وتعددت جواري قصر الخلافة حتى بلغن في ايام الرشيد زهاء اربعة آلاف جارية « وكان الرشيد قد أهديت اليه جارية في غاية الجمال والكمال فخلا معها يوماً واخرج كل قينة في داره واصطبح فكان جميع من حضره من جواريه المغنيات والخدمة في الشراب زهاء الفي جارية في احسن زي من كل نوع من انواع الثياب والجوهر واتصل الخبر بام جعفر فغلظ عليها ذلك فارسلت الى

١) المحاسن والاضداد المنسوب للجاحظ ليدن ٢٣٦
٢) كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ١٥٣
٣) الاغاني ٣ : ١٤٢
٤) ورد في الكامل لابن الاثير « الباقونة » وهو تصحيف وروي في كتاب الفهرست « البانوجة » بالجيم المصرية (ص ٤٢٦) .
٥) تاريخ الطبري مطبعة الاستقامة القاهرة ٨ : ٤٠٥

عُليّة تشكو اليها فارسلت اليها علية : لا يهولنّك هذا فوالله لاردنّه اليك قد عزمت ان اصنع شعرا واصدغ فيه لحنا واطارحه على جواريّ فلا تبقى عندك جارية الا بعثت بها اليّ وألبستهنّ الوان الثياب ليأخذن الصوت مع جواريّ ففعلت ام جعفر ما امرتها به علية فلما جاء وقت صلاة العصر لم يشعر الرشيد الا وعلية قد خرجت عليه من حجرتها وام جعفر من حجرتها معها زهاء الفي جارية من جواريها وسائر جواري القصر عليهن غرائب اللباس وكلهن في لحن واحد هزج صنعة علية :

منفصل عني وما قلبي عنه منفصل
يا قاطعي اليوم لمن نويت بعدي ان تصل

فطرب الرشيد وقام على رجله حتى استقبل ام جعفر وعلية وهو على غاية السرور وقال : لم أرَ كاليوم قط يا مسرور لو تبقينّ في بيت المال درهماً الا نثرته فكان مبلغ ما نثره اليوم ستة آلاف الف درهم وما سُمع بمثل ذلك اليوم قط »[1].

ولا ريب ان عدد الغلاميات اربعة آلاف بين جواري القصر كان طائلاً لولع الرعاة والرعية في مثل هذه الازياء الطريفة التي كانت غالبة على اكثر الوصائف والخدم وكان الرشيد لا يرى بأساً في بذل غلامياته لاولاده حدث ابو بكر بن الانباري باسناده الى منصور البرمكي قال : كان لهرون الرشيد جارية غلامية يعني وصيفة على قد الغلام وكان المأمون يميل اليها وهو اذ ذاك امرد فوقفت يوماً تصبّ على يد الرشيد من ابريق معها والمأمون جالس خلف الرشيد فاشار اليها كأنه يقبّلها فانكرت ذلك بعينها وابطأت في الصبّ على مقدار نظرها الى المأمون واشارتها اليه فقال الرشيد : ما هذا ؟ ضعي الابريق من يدك ففعلت . فقال : والله لئن لم تصدقيني لاقتلنّك فقالت : يا سيدي اشار اليّ عبدالله كأنه يقبلني فانكرت ذلك . فالتفت الى المأمون ونظر اليه كأنه ميت لما داخله من الجزع والخوف فرحمه وضمّه اليه وقال : يا عبدالله أتحبّها ؟ قال : نعم يا امير المؤمنين قال : هي لك . . . »[2]

---

١) الاغاني ٩ : ٨٨

٢) امالي القالي طبعة ١٣٢٤ ج ١ : ٢٢٩ — ٢٣٠ وتاريخ بغداد ١٠ : ١٨٥

وشبّ المأمون لذلك على حب الغلاميات فلما صارت الخلافة اليه كان يلبس من يختاره من جواريه لباس الغلمان ولا يكتم التشوق اليهن « قال عيسى بن ابان : كنت عند المأمون فاستأذنته في الخروج الى البصرة الى عيالي فقال : انا اشوق منك الى عيالي ولكن وجّه اليهم فيحملوا . ثم قال لخادم على رأسه : مُرهم بالوصول. واقبل غلام لا نبات بوجهه مغلّف بالغالية فسلّم فقال : مرحباً فاجلسه على فخذه اليمنى واقبل آخر فاقعده على فخذه اليسرى فجعلت انظر اليها والى حسنها. . . فقال: يا عيسى انها جاريتان اشتهيتها في ذي الغلمان. . . »[1]

وقد مرّ بنا آنفاً ولع الامين والمتوكل والقاهر بالغلاميات وامل المتوكل كان بعد الامين اشد الخلفاء غراماً بهذا الزي المذكّر ولم يكن عنده احظى من قبيحة ام المعتز وله فيها اشعار منها :

انسانة كالشمس هيفانة احبها ليست من الانس
مليحة الشكل غلامية احسن في الحسن من الشمس[2]

وكان اكثر من يؤثر منهن المطمومات اي المقصوصات الشعر وقد تقدم انه سأل امرأته ريطة ان تقص شعرها ولما أبت طلقها ولم يخرج قط حتى امكنته الفرصة من انتزاع من اعجبته منهن ولو قهرًا قالوا: «كانت نخلة جارية الحسين بن الخال قبل ان يتولى المتوكل الخلافة تقعد بين يديه وتغنيه فولدت للحسين ابناً فلما ولي المتوكل الخلافة طرقه ليلاً فقال له الحسين : زرتنا جعلت فداك ؟ قال : اشتهيت ان اسمع غنا. نخلة فاخرجها اليه مطمومة الشعر فقال : يا خال أليس قد ولدت منك ابناً ؟ قال : بلى قال : انا احب ان تعتقها قال : فانها حرة قال : فاشهد اني قد تزوّجتها قومي يا نخله . فاشتدّ ذلك على الحسين فعوّضه عنها خمسة عشر الف دينار وحوّل نخلة اليه . . . »[3]

ومن هذه الشواهد كلها يتبين ان العراق كان موطن الغلاميات ومطلع اقمارهن ومباءة ملكهن والسوق الاعظم الذي تتفق فيه كل شاطرة وشاردة

---

١) غيث الورى الذي انسجم في شرح لامية العجم باريس ٣١١٩ ص ٢٩٤

٢) مرآة الزمان خزانة بريتش موزيوم Or. 4618 f° 152 a

٣) المحاسن والاضداد ليدن ٢٣٦

منهنّ خلافاً لمصر فانه يلوح انهن لم يبلغن قط فيها الشهرة التي بلغنها في بغداد وهو لا يخلو من الغرابة نظرًا لما عرفت به مصر من التبسط في فنون المعيشة والاخذ بنصيب وافرٍ من كل جديد في الحياة والاقبال على كل طريف وعجيب في العادات والازياء والولع بكل طارئ من الملاهي والبدع ولا سيما في دولة الفاطميين وقد قلبنا كل ما نالته يدنا من الادبيات المصرية وكتب الاخبار والتاريخ ودواوين الشعراء فلم نهتدِ الا الى بيتين للامير تميم بن المعزّ من ارجوزة له في وصف ساقية قال فيها :

طاهرة الذيل والخفتان | في هيئة المرد من الفتان
شاطرة ساحرة اللسان | ترفعت عن شبه النسوان[1]

يريد بالخفتان ما يعرف اليوم بالقفطان وهو القباء الذي كان يلبسه الذكور والسقاة ولا ريب انه فاتنا كثير من امثال هذا الوصف في ما ضاع او تقذفت به يد الغير والخطوب في مهب كل ريح من الفتن والنكبات وقد روينا قبلًا انه في ايام الخصيب امير مصر ورد بعض التجار بجوار روميات بديعات الحسن وان الامير اختار ابرعهنّ جمالًا ووهبها لابي نواس وهو ما يدل على ان القاهرة كانت ايضاً معرض الغلاميات والحلبة التي كانت تتسابق فيها غانيات الصقالبة والروم ولعل ذلك يصح ان يقال ايضاً في الشام لان دمشق كانت سوقاً من اهم اسواق النخاسة ومع ذلك فقد خفي علينا معظم اخبار الغلاميات فيها فلا ندري شيئاً مما كان يجلب اليها او يروج فيها لقلة احتفال المؤرخين والكتاب بشؤون التجارة وضروب المعيشة والحضارة وقد تتبعنا ايضاً اشعار الشاميين في ما جمع منها كاليتيمة والخريدة واشباههما فلم نظفر منها بطائل ووقف بنا التوفيق امام ابيات ثلاثة لم تكن تخطر ببال تضمن الاولان اشارة الى الغلاميات في اثناء وصف دير البنات المشرف على ارض طرابلس وهما للطيبي الشاعر :

وبيننا خود كشمس الضحى | واغيد قد فاق بدر التمام
لولا نبات الشعر في خده | لم ندرِ اي الاغيدين الغلام

---

١) ديوانه ليدن Arab. 2038 fº 314

واغرب منها البيت الثالث للمطران سليمان الغزي من قصيدة ذكر فيها دير سابا ومزارات القدس فقال :

دخلت بغير جارية اليـه ولا امرأة على شكل الغلام

يريد انه دخل الدير بعد زهده في النسا. والجواري الغلاميات وهو ما يدل على شيوع زي الغلاميات حتى بين النصارى .

ومن الثابت المحقق ان لقب «الغلامية» هو من الالفاظ العباسية ولم يكن معروفاً في ايام الامويين وهو ما صرّح به محمد بن علي الخُراساني الاخباري حيث قال للخليفة القاهر بالله «اتخذ الناس من الخاصة والعامة الجواري المطمومات والبسوهنّ الاقبية والمناطق وسموهنّ الغلاميات» . . .

كتاب
الدرّ المرصوف في تاريخ الشوف

تأليف القس حنانيا المنيّر من الرهبانيَّة الشويريَّة

مهّد له وعلّق حواشيه ونشره
الاب اغناطيوس سركيس
من الرهبانية الشويرية

موت ظاهر العمر وابرهيم الصباغ (١٧٧٥)

وكان احمد بك الجزار قد شكى الى الدولة العلية أخلاق الشيخ ظاهر العمر وعشيرته . لانه كان بعد خروجه من عنده سافر الى القسطنطينية وصادف سبيلاً للقبول . وسعى في الشيخ ظاهر انه ظالم غدار لا ترتاح الرعايا في ولايته. وكان قد تقدم مثل ذلك من محمد بك ابي الذهب . فتحققت السعاية وانعمت الدولة على احمد بك الجزار بولاية صيدا . واعطته فرماناً بعد ذلك . وكان قد بلغها خبر وفاة ابي الذهب . فجهزت حسين باشا قبطان[1] باثني عشر مركباً حربية . وعن يده فرمان الى الشيخ ظاهر العمر باستدعائه الى الطاعة وطلب الاموال السلطانية المكسورة عنده منذ ولايته . فحضر حسين باشا بمراكبه الى يافا . وارسل الفرمان الى الشيخ ظاهر وتعهد له ان اطاع يجعله والياً على ايالة صيدا وعكا .

فعقد الشيخ ظاهر ديواناً وجمع اليه اكابر دولته . واخذوا يتحدثون في ذلك . فمنهم من قال نترك البلد ونتحصن في الجبال . ومنهم من قال نثبت مكاننا ونقاتل . فان ظفرنا فهي الحاجة . والا فالفرار لا يفوت . وقال الشيخ

١) حسن باشا وزير البحر الابيض وهو المسمى في اللغة التركية بالقبوذان (تاريخ الامير حيدر) . وقوله حسين غلطة نسخ ولا شك لان هناك شخصاً آخر اسمه حسين باشا سيأتي ذكره .

ظاهر : انا رجل قد شخت في خدمة الدولة . فاريد ان اقضي بقية ايامي في الراحة . ولا طاقة لي على القتال والتقلب في مهاته . وكان في ديوانه احمد آغا الدنكزلي . فقال : اصبت يا مولاي . ان غضب الدولة بلاء عظيم ورضاها غنيمة . والمال الذي تدفعه هو من نعم الدولة واليها يعود بالحق . وانت تستخلف من رضاها اضعاف ما ترد عليها من مالها . وكان عند الشيخ ظاهر رجل من من نصارى عكا يقال له ابرهيم الصباغ وكان متسلماً امور الشيخ ظاهر باسرها . حتى اولاده ونساءه . وكان الشيخ ظاهر لا يقضي امراً جلّ او قلّ ، الا برأي هذا الرجل . فقال ابرهيم : يا مولاي . ليس عندنا مال يفي ما علينا للدولة . والدولة لا ترضى منا ، ولو دفعنا ما فوق حقها . فقال احمد آغا الدنكزلي : يا ابرهيم . اعطني مئة الف غرش ، وانا امضي بها الى حسين باشا قبطان ، وارضيه بها ، وآتيك بالعفو والامان والولاية على كل ما كان في ايدينا . فقال ابرهيم : ليس عندنا الا سيوف ورماح . فليفعل حسن باشا ما شاء . والله المستعان وخرج ابرهيم من الديوان . وانفضّ المجلس على هذه الحال .

فحنق احمد آغا الدنكزلي من ذلك ، وكان رئيس المغاربة ، وهم ضباط الابراج والاسوار . فاجتمع بهم وحدثهم بما كان . وامرهم ان يسدوا افواه المدافع ، فلا يطلقوا منها شيئاً ، ولا يدعوا احداً يطلقها عند الحاجة . وارسل الشيخ ظاهر اولاده الى خارج المدينة ، ليجمعوا ذخائر للحصار ورجالاً للقتال .

واما حسن باشا قبطان . فلما ابطأ عليه الجواب . علم ان الشيخ ظاهر اراد العصاوة . فاقبل نحو عكا بالمراكب ورماها بالكلل والقنابل . فثار الشيخ . وامر المغاربة باطلاق المدافع عليه . فقالوا نحن لا نحارب عساكر السلطان . وحاصروا في الابراج . فلم يمكنوا احداً من الدخول اليها . وكان احمد آغا الدنكزلي قد ارسل الى حسن باشا يعلمه بما كان . فاشتد عزمه . واستأمن في الهجوم على البلد . واخذت ابنية عكا تتهدم . وحجارتها تطير . فضاق صدر الشيخ ظاهر . ولم يجد له سبيلاً غير الهزيمة . فهرب طالباً الجبال . وبينما هو خارج من احد ابواب المدينة ، رماه احد المغاربة برصاص . فقتل مكانه . وهرب ابرهيم الصباغ الى الخارج فنجا ونزل عند رجل من مشايخ المتاولة ، يقال له الشيخ علي درويش . ودخل حسن باشا الى المدينة . ولم يتعرض

لاحد بسوء بل طلب رأس الشيخ ظاهر . فاحضروه اليه . واخذ يضبط خزائنه واملاكه واسبابه وخيله واسلحته ، فكانت شيئاً لا يدخل تحت حساب . وكان المضروب من الدنانير ثمانية عشر الف الف غرش ما عدا التحف والجواهر وغيرها. وكان جميع ذلك تحت يد ابرهيم الصباغ الذي لم يسمح بمئة الف غرش منه .

وقيل ان حسن باشا لما امر بنقل تلك الاموال الى البحر ، كان من جملتها صندوق مصفح بالحديد أجتمعت اناس كثيرون حتى سحبوه بالحبال والآلات . وتكسر درج المكان الذي انزلوه منه . وقالوا انه وجد في خزائن الشيخ ظاهر دواة يوسف الحسن من عهد فرعون كانت عند امير اللواء علي بك ، احضرها في خزائنه لما حضر الى عكا ، وترك الخزائن هناك لما رجع الى مصر. فبقيت عند الشيخ ظاهر وهي قطعة واحدة من الزمرد .

وبعد ان تسلم حسن باشا المدينة ارسل يستدعي اليه اولاد الشيخ ظاهر واعطاهم الامان اذا دخلوا في الطاعة ووعدهم بتقرير الولاية عليهم مكان ابيهم . فحضروا . وعند وصولهم رسم عليهم ، وكانوا اربعة . وهم : الشيخ عثمان والشيخ سعيد والشيخ احمد والشيخ صالح. واما اخوهم الشيخ علي فكان مقيماً في قلعة يقال لها عمارة حنا . ولم يأمن ان يحضر فبقي هناك . ولما وقع الترسيم على اولاد الشيخ ظاهر ، تكلم الشيخ سعيد ما لا يليق بشأن الدولة فامر حسن باشا بقتله . وانزل اخوته الى المراكب وارسلهم الى القسطنطينية . واما ابرهيم الصباغ فقبض عليه الشيخ علي درويش الذي كان عنده وارسله الى حسن باشا . فعذبه عذاباً اليماً حتى اقر بكل ما يعلم من الاموال . ثم انزله الى المراكب وامر بشنقه. فعلق في ساري السفينة. وكان موعظة لكل بخيل[1] .

الجزار في ولاية صيدا

وفي سنة ١١٨٩ (١٧٧٥) حضر احمد باشا الجزار والياً على ايالة صيدا .

---

١) اختلف المؤرخون في موقف ابرهيم الصباغ وسبب قتله . قال رفائيل كرامه مثلاً، وهو زميل المنير في الرهبانية الشويرية : انه كان شخصاً متبرّاً . . . فتأسف عليه الجميع . . لانه كان سنداً عند اولياء الامور عند مسيس الحاجة .

والظاهر انه كان، بسبب مكانته ، وربما بسبب بعض اخلاقه ، عرضة لشيء من التحامل من قبل بعض معاصريه .

وسلمه حسن باشا قبطان مدينـة عكا . وتوجه بالمراكب الى بيروت . وكان الامير يوسف وبنو عمه قد رحلوا منها الى الجبل فارسل الى الامير يوسف يطلب منه الاموال السلطانية المكسورة عنده عن ست سنوات . من حين ما تولى الشيخ ظاهر العمر على صيـدا . فاجاب الامير يوسف انه في هذه السنين صرف اموالًا كثيرة على العساكر في قتال الشيخ ظاهر والمتـاولة . وانه دفع الى عثمان باشا واولاده بقية الاموال المكسورة . وزوّر وصولات في ذلك وارسلها اليه مع كتابات لطيفة وهدايا فاخرة . وسأله ان يكف احمد باشا الجزار عن التعدي عليه . فصار ذلك مقبولًا عنـد حسن باشا . وارسل الى الامير يوسف كتاب الرضى والامان وطلب منه ان يرسل اليه مئة الف قرش فقط ، لكي يرسل اليه وصل الخلاص ، ويقرره على ولايته . فجهز له الامير يوسف المطلوب وارسله اليه . فتسلمه وارسل اليه التقرير على حكم بـلاد الشوف والبقاع وبيروت وجبيل . وان لا يكون لاحمد باشا الجزار سلطة عليـه الا في ايراد الاموال السلطانية لا غير . ثم توجه حسن باشا راجعاً الى عكا . وفي وصوله امر بقتل احمد آغا الدنكزلي متهماً اياه بعدم المحافظة[1] . وكان ذلك وفاء عن سعيه المذكور في نوبة الشيخ ظاهر العمر . وكان احمد باشا الجزار قـد ابتدأ بعين العساكر عنده . فحضر اليه نحو ستمئة خيال قبيس ، فاستخدمهم . واقاموا عنده . وكان بعد رجوع حسن باشا قبطان من بيروت ، ارسل ضبط مداخيلها . وارسل الى الامير يوسف يطلب منه المال السلطاني عن تلك السنة . وارسل خيل القبسيس الى بيروت . ولمـا بلغ الامير يوسف مسير عسكر الجزار من

---

١) ثم رفع حسن باشا رأسه قليلًا والتفت الى الدنكزلي وقال له : من اي بـلاد من المغرب انت ؟ – قال له من تاهرت . – فقال له : وما كانت صنعتك هناك ؟ قال له : كنت حطاباً بفأسي . – قال له حسن باشا : وكم سنة صار لك في خدمة ظاهر ؟ اجابه : ما يزيد عن اربعين سنة . – قال له الباشا كم كان دخلك منه ؟ – اجاب الدنكزلي : كان دخلي في اول سني خدمتي عنده قليلًا . ولكن لم يكن يقل عن مئتي كيس لي ولاتباعي . . . فقال له حسن باشا : تأكل خبز انسان اربعين سنة ودخلك منه هذا المقدار وتخضب سيفك بدمه ! ينتقم الله مني اذا كنت لا انتقم منـك لظاهر . – ثم امر من كان في حضرته من ملازميه فاخذوا الدنكزلي فخنقوه ورموه في البحر . فكان هذا ايسر جزاء خيانته لمولاه . (تاريخ ظاهر العمر) .

عكا ارسل المشايخ النكدية بثتي نفر يمسكون طريق السعديات . فاكمنوا بين الصخور فوق ذلك الطريق حتى وصل العسكر . فثاروا عليه . وانتشب بينهم القتال . وكانوا يظنون ان الخيل لا تقدر ان تصل اليهم لامر المكان. فهجمت القبسيس الى بين تلك الصخور. واستظهرت عليهم . فقتلت منهم جماعة . وقتل الشيخ ابو فاعور نكد . وقبضوا على ولده الشيخ محمود وعلى الشيخ واكد ابن الشيخ كليب . وتركوا اخاه الشيخ بشير مجروحاً بين حي وميت. واغتنموا خيلهم وسلاحهم . ورجعوا الى صيدا بالاسيرين المذكورين . فسجنهما المتسلم في القلعة . وكان ذلك في شهر آب. وهذه اول موقعة حصلت بين الجزار واهل البلاد.

ولما بلغ الامير يوسف ذلك استطار فؤاده وارسل الى حسن باشا ان الجزار ابتدأ بالمطاولة على بلاده . وانه ارسل عسكراً فغار على اطراف البلاد وقتل ونهب واستأسر . وان ذلك انتقاماً منه عن ايراد المال الى حسن باشا. وكان حسن باشا يكره الجزار . لانه تولى ايالة صيدا عن غير يده . فاستدعى اليه الجزار . وزجره . فاعتذر اليه . وارسل حسن باشا الى الامير يوسف يعده انه متى رجع الى الباب العالي يعزل الجزار عن ايالة صيدا . وبعد ذلك سافر الى القسطنطينية . واخذ تلك الاموال التي ضبطها من عكا . وتمرد الجزار واعتز بعد مسيره . وعزم على مضاجرة الامير يوسف وتمهيد بلاده .

وفي سنة ١١٩١ (١٧٧٧) ارسل الامير يوسف الى احمد باشا الجزار يسأله اطلاق المشايخ النكديين المسجونين في قلعة صيدا . فسمح باطلاقهم تحت ايراد مبلغ مئة الف غرش . وارسل في تحصيل المال مصطفى آغا ابن قراملا ومعه اربعمئة خيال قبسيس . فاحتسب الامير يوسف وارباب دولتهم من حضورهم . ولمحوا ان مرادهم قتل الامير يوسف وامتلاك الدير . لانهم رأوا نقباً قد احدثوه في المكان. الذي يتزلون فيه ؟ آخذاً نحو دار الامير يوسف . فاحتجب الامير يوسف عنهم وامر رجاله ان يلازموا سلاحهم . واشار الشيخ عبد السلام العماد ان يوزع الامير يوسف ذلك المطلوب على اهل البلاد . ويرسل جماعة مصطفى آغا في تحصيله ويرسل الى اهل البلاد سراً ان كل من عنده واحد منهم يقتله. فيكفي الامير يوسف شرهم على احسن سبيل . ويكون ذلك بمشاركة اهل البلاد جميعاً فلا يتخلى احد منهم عن معاضدة الامير يوسف .

فرأى الامير يوسف والاكثرون ذلك صواباً . ولم يرضَ بذلك الشيخ كليب نكد خوفاً على المسجونين منهم في صيدا . فتكلم الامير يوسف مع مصطفى آغا ان يصرف العسكر الذي معه . ويبقى بانفار منه على تحصيل المال . وكان مصطفى آغا قد رأى انه لا يقدر على قتل الامير يوسف . فاجابه الى ذلك . وكان الامير يوسف قد وزع ذلك المال على مناصب البلاد. وارسل في ذلك حوالات ومباشرين . فانكر امراء المتن ذلك وطردوا الحوالات من عندهم . فعظم ذلك على الامير يوسف . وعزم على قصاصهم . وارسل مصطفى آغا الى حرش بيروت لاجل قصاص الامراء المذكورين في املاكهم التي لهم في تلك الاطراف . وكان مصطفى آغا قد اصرف جماعته في صيدا. فاستحضرهم الى هناك . وصار العسكر يصعد الى اطراف المتن ينهب ويحرق ويعود الى الحرش . فاحرقوا قرية المكلس والدكوانة والجديدة . واتصلوا الى انطلياس . فنهبوا ما وجدوه في الدير والقرية . واستاقوا مواشي كثيرة . وصادفوا ناساً من الرعايا . فقبضوا عليهم . واحضروهم الى مصطفى آغا . فارسلهم الى صيدا. وبينما هم في الطريق اعترضهم المشايخ النكدية . ففكوا الاسرى واطلقوهم . وهرب الذين كانوا معهم من رجال الدولة . وكان الامير يوسف قد اتفق مع امراء المتن خوفاً من غلبة الجزار على البلاد عند انقسامها . وبلغ مصطفى قراملا ذلك . وعلم بمعارضة المشايخ النكديّة لاتباعه وفكهم المرابيط . فركب بعسكره . وكبس قرية الشويفات فلم يقدر عليها . فقتل من عسكره جماعة. وعلم انه لا يقدر على البلاد من هذه الجهة . فرجع الى صيدا . وعرض على احمد باشا الجزار ان الامير يوسف قد اتفق مع اهل البلاد على العصاوة. فاضاف اليه عسكراً ، وتوجه به الى اراضي البقاع . فاخذ يضبط غلال اهل البلاد التي هناك . ويتطاول على الناس . فهربوا من وجهه . وجمع الامير يوسف عسكراً وارسله لقتاله . فحدث بينهم مواقع كثيرة والنصرة لعسكر الامير يوسف . وكان الجزار لا يفتر عن امداد عساكره بالرجال والذخائر. وحدث بين العسكرين موقعة عظيمة في مكسة . فاحاطت الدولة بعساكر البلاد . وظفروا به . وقتلوا منه خلقاً كثيراً . وقتل في ذلك اليوم الشيخ سيد احمد العماد والشيخ ظاهر عبد الملك . ولو لم تأتهم النجدة من البلاد لما بقي منهم احد .

ثم توجه مصطفى آغا وكبس مدينة بعلبك . فتشتت اهلها . وقبض على الامير محمد الحرفوش . والبعض من اعيان البلد ومشايخها . وحبسهم . واخذ منهم مالاً جزيلاً . ثم كبس قرية سعدنايل . ونهب مواشيها . وقتل من قاومه من اهلها .

احراق زحلة

وفي تاسع عشر تموز كبس زحلة . واضطربت الناس . وهاجت . وهرب اكثرهم الى الدير الذي بها وما فوقه من الجبل . وحاصر بعضهم في الدير[1] . ووقع القتال بينهم وبين الدولة . فقتلوا منها اناساً قلائل . وكسروها فرجعت نحو البلد. ونهبت شيئاً وانهزمت. وحضر بعد ذلك بعض من الامراء. والمشايخ من الجبل برجال. فجدد عسكر الدولة ركبة ثانية على زحلة. وكان ذلك في سابع شهر آب. ولما وصلوا الى البلد هرب عسكر البلاد من غير قتال. وقيل ذلك كان لخيانة فيه . فطمع عسكر الدولة . وهجم بسيوفه فادرك البعض من اهل البلد ومن عسكر الجبل . فانتشب بينهم القتال . وبينما هم يقتتلون وصل الامير مصطفى الحرفوش ومعه رجال قلائل . فصادم الدولة وقاتلها . وصار بذلك فرصة للناس ان تنهزم . فانهزموا. وثبت الامير مصطفى . فكانت الدولة راجعة الى القرية فاحرقتها بالنار . واحرقت الدير وكل ما فيه . وسميت هذه السنة سنة ابن قرملا الى يومنا هذا . واعتبر هذا الرجل وتمرد . وحدثته نفسه ان يقتل الجزار ويتولى مكانه . واتفق على ذلك مع عبدالله آغا وغيره من قواد العساكر . وبلغ ذلك الجزار فاحتسب. وارسل قطع خرج ابن قراملا. فرجع الى حيث منشأه ومقامه . وهناك حدثت فتنة بينه وبين بني عمه فقتلوه وارتاحت الناس من شره .

ابن قراملا

وكان هذا الرجل ظالماً غداراً . سفاكاً للدماء . بطلاً في الحرب لا يطاق .

---

١) هو دير مار الياس النبي للرهبانية الباسيلية الشويرية . بنته نحو سنة ١٧١٠ على الكتف الشمالية الغربية من البلدة . وكانت زحلة اذ ذاك ، قرية صغيرة وعلى اثر بنائه لجأ الى جواره كثير من السكان . فكانوا يسلون في ارزاقه . وكان كثير منهم من رأس بعلبك فسمي الحي الذي قطنوه حي الراسية الى اليوم . واخذت زحلة تنمو وتتسع منذ ذاك . وكان الدير مدى تاريخه ملجأ وحمى للسكان . وتحمل كثيراً من الكوارث والاضرار من مثل هذه المذكورة في المتن .

وكان مغرماً بالصيد ولعب الخيل . وكان فارساً عظيماً . وقيل انه كان ينزل الى الميدان في دير القمر ويرمي الجريدة من نصف الميدان نحو الشرق فتمرّ من فوق السراي. ونحو الغرب فتمر من فوق المأذنة. وكان طويل القامة رقيق الجسم ، اصفر اللون بلحية سودا، صغيرة . وكان له من العمر خمسة وعشرون سنة لا غير .

اغتيال الشيخ علي الظاهر

وفي هذه السنة توفي الامير حيدر الحرفوش في مدينة بعلبك . وتولى مكانه اخوه الامير مصطفى . وكان الامير حيدر شجاعاً حكيماً كريماً حسن السيرة .

وفي هذا العهد كان احمد باشا الجزار لم يزل يتقصد قتل الشيخ علي ابن الشيخ ظاهر العمر . وبذل جهده في ذلك . وارسل اليه العساكر مراراً ولم يقدر عليه . غير انه ظفر بولديه الحسن والحسين فقتلهما . وضاق صدر الشيخ من عداوة الجزار . فالتجأ الى جبل الشوف . ونزل في قرية نيحا . فلم يقبله الامير يوسف خوفاً من الجزار . فرجع واقام في نابلس . وكان من خيالة القبسيس التي استنجد بها الجزار في عكا رجل يقال له علي آغا القيصرلي . انفرد عنهم لعداوة كانت بينه وبين عبدالله آغا . واقام عند محمد باشا العظم في دمشق . وكان محمد باشا قد اتهم من طرف الدولة بخزانة الشيخ ظاهر العمر . فاراد ان يبرّر نفسه . وطلب من علي آغا ان يحتال له على قتل الشيخ علي الظاهر . فكتب علي آغا الى الشيخ علي انه قد غضب من محمد باشا العظم وكره الاقامة عنده . وانه يريد ان يتحول اليه ، ويكون مسعفاً له على مقاومة الجزار . فاجابه الى ذلك . وحضر علي آغا بجماعته . وكان قد اطلع اكابرهم على سره . وما عاهدهم على اشارة تلوح منه فينهضون لحاجته . ولما دخلوا على الشيخ علي رحب بهم واكرمهم . وهو قد امن اليهم لعلمه انهم من انصاره . ولما سنحت الفرصة اشار علي آغا الى اصحابه . فوثبوا على الشيخ عليّ وقتلوه واخذوا رأسه الى دمشق . فارسله محمد باشا الى القسطنطينية . وباد ذكر بني ابي زيدان بعد الشيخ علي الظاهر .

ولم يكن اقوى من الشيخ علي في زمانه ولا اكرم ولا افصح ولا اغنى نفس منه . وقيل انه كان لا يرضى ان يزوج بناته لئلا يدخلنَ تحت طاعة

الرجال. وقد رأينا واحدة منهن بعده تدور على اهل النعم سائلة عطاياهم وهي لا تفرق عن ادنى الفقراء. لكن نفسها لا تسمح بسؤال ادنياء الناس كغيرها.

واما اخوة الشيخ علي فكانت الدولة قد انعمت عليهم بعد وصولهم الى القسطنطينية. واقامت الشيخ عثمان وزيراً على مدينة جدة: والشيخ احمد وزيراً على مدينة في بر الروم. والشيخ صالح كان يشترك معها في تلك النعمة. وكلهم لم يسألوا عن حال من تخلف بعد ابيهم. وكانت اخواتهم على هذه الحالة الذميمة.

وبعد قتل الشيخ علي تغلب احمد باشا الجزار على بلادهم. ورتب عليها مطالب. واجرى فيها عوائد لم تكن قبل ذلك. وذلت تلك العشائر. واندرست عنها تلك الكرامة. فسبحان من بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

٥

وفي هذه السنة ارسل وزير طرابلس نائبه عثمان بك شديد. فكبس الامير حيدر ابن الامير ملحم الشهابي في اهدن الجوز من معاملة جبيل. وكان معه عسكر من طرابلس الشام. فحاصروه في القرية يومين: وبلغ ذلك المشايخ بني رعد في الضنية فاقبلوا برجالهم لاسعاف الامير حيدر. واجتمع ايضاً رجال من القرى المجاورة فكسروا عسكر طرابلس وقام ذلك العسكر الى اميون. وصار يتقوى من معاملة طرابلس وتلك القرى. ووصل الخبر الى الامير يوسف فجمع عسكراً من بلاد الشوف وارسله الى اخيه الامير حيدر. واقبلوا جميعاً الى قرية اميون وكبسوا عسكر طرابلس. فظفروا به. وقتلوا اكثرهم.

وفي هذه السنة في شهر حزيران حدث مطر غزير وبرق ورعد ورياح عاصفة كما يكون في معظم الشتاء. ودام المطر يومين متلاحقاً حتى فاضت الانهر ودارت الطواحين. وفي هذه السنة حضر جراد الى هذه البلاد. وكان كثيراً جداً. فعم السواحل والجبال. واضر بالناس مضرة عظيمة.

الراهبة هندية

وفي هذه السنة تلاشت اخوية دير بكركي في كسروان. وكان باسم الراهبات ورئيستهم التي يقال لها الام هندية. وكانت امرأة حلبية قد حضرت

الى هناك . فدخلت في الرهبنة وتظاهرت بالقداسة . وصارت تجترح العجائب والمعجزات . وشاع لها ذكر عظيم . واعتقد بها كثير من الناس . ودامت على ذلك سنوات . حتى كشف الله سترها . فاذا بها ساحرة كذوب خادعة. فبادت تلك الاخوية . واخرجت هندية من الدير فاقامت في الزوق عند بني خضراء لانه كان لها منزلة عندهم ، وهم الى الآن يعتقدونها ، وكذا بني الجاماتي من المكان المذكور .

ومكثت هناك الى ان ماتت . ومن اراد ان يقف على تفصيل ذلك بالكفاية فعليه بكتابنا الآخر المختص بتواريخ الرهبنات .

الامير يوسف واخوته

وفي سنة ١١٩٢ (١٧٧٨) وقع الاختلاف بين الامير يوسف والمشايخ النكدية لانه قصر في استخلاص المسجونين منهم في صيدا . ودبروا على خلعه من الولاية واقامة اخويه الامير سيد احمد والامير افندي مكانه . واتفقوا معها ومع المشايخ بني جنبلاط . واخذوا في مقاومته . وانهاض مناصب البلاد ضده. فاشتدت الحركة . وتكاثرت احزابهم وبلغ الامير يوسف ذلك . وعلم انه لا يقدر على مقاومتهم . فترك دير القمر وتوجه الى غزير في كسروان . واتفق انه بعد مدة يسيرة توفي الشيخ علي جنبلاط . وحضر الامير يوسف الى مناحته. وبوجوده في تلك المناحة اظهر انه يريد ان يكون الحكم لاخويه . وتنزل عنه بارادته. وسلمها اياه . وارسل البعض من مشايخ البلاد الى احمد باشا الجزار في طلب الخلعة لهما . فاجاب الجزار الى ذلك . وحضروا بالخلعة للامير سيد احمد والامير فندي . فحضرا باهلها الى الدير . وتسلما زمام الحكم . ووزعا الاموال السلطانية . وطاعتهما الناس الا ان حكمهما لم يطل . لان الامير يوسف اخذ يفند بعض الامراء . والمشايخ . ويستميلهم اليه . فعرضوا الى الجزار في شأنه . وعلم بذلك الامير سيد احمد والامير افندي . فكتبا الى الجزار . وطلبا اسعافه على مقاومة اخيهما . فارسل لهما عسكرًا الى حرش بيروت. وحضر بنفسه الى مدينة بيروت . فحضر الامير سيد احمد الى مواجهته . فطيب قلبه . وارسل معه عسكرًا من رجال الدولة . وتوجه به الى جبيل لكي يرفع منها

اخاه الامير حيدر الذي كان متسلمها من اخيه الامير يوسف . وتوجه الامير افندي الى كسروان ليطرد اخاه الامير يوسف من غزير. فانتقل الامير يوسف من غزير الى بسكنتا . ووصل الامير سيد احمد الى جبيل وحاصرها . وضيّق على اخيه الامير حيدر . ودام الحصار مقدار شهر . وفي تلك المدة ارسل الامير يوسف الى الجزار . ودفع له مئة الف قرش على الولاية . فقبل منه ونكث عهده مع اخويه حسب عوائده . وقام من بيروت الى صيدا . ونهض الامير يوسف من بسكنتا الى بعقلين منتظرًا وصول الخلعة اليه . ولما بلغ ذلك الامير افندي اصرف العسكر الذي معه . وحضر الى المتن . والامير سيد احمد بعد ان كاد يفتح جبيل نهض حالًا وهرب من بين عسكر الدولة . وحضر الى المتن ايضًا . ورجع العسكر نحو بيروت . والذين كانوا في جبيل متضايقين من الحصار خرجوا وضبطوا كل ما وجدوه لعسكر الدولة . وكان قد قتل من عسكر الامير سيد احمد مقدار مئتي نفر من الدولة واهل البلاد . لانه في محاصرته لجبيل اتى لاخيه الامير حيدر عسكر من طرابلس مسعفًا له . فحدث بينه وبين عسكر الامير سيد احمد موقعة . وقتل رجال من الفريقين وانكسر عسكر طرابلس . وتمرد بعد ذلك الامير سيد احمد . وامل بالظفر . فلم ينجح له امل . وقد اقام هذا الامير جملة حركات ولم ينجح سعيه ولا في واحدة منها.

ولما حضر الامير يوسف الى بعقلين جمعت المشايخ النكدية رجالها وقاومتهم ومنعتهم عن الدخول الى دير القمر . فاقام في بعقلين الى ان حضر اليه الشيخ حسين جنبلاط والشيخ عبد السلام عماد وبقية المناصب . وحضرت اليه الخلعة مع اسعد بك ابن طوقان . فرأى المشايخ النكدية انهم متعوبون. فارتحلوا من الدير. واقاموا في بعض قرى المناصف . وحضر الامير يوسف الى الدير بصولة عظيمة . وارسل اسعد بك ابن طوقان يتحول على المشايخ النكدية بالمئة الف غرش التي تعهد بها لاحمد باشا الجزار . فنزحوا من المناصف . ونزلوا على الشيخ ناصيف القصار في بلاد المتاولة وهرب الشيخ محمد القاضي الى حوران . واما الامير سيد احمد والامير افندي فتوسط امرهما المشايخ بنو جنبلاط . وترامو على الامير يوسف واستعطفوا خاطره عليهما . ورجعا الى دير القمر . فانزلهما في دور المشايخ النكدية . وصرفهما في بعض ارزاقه التي كان قد ضبطها .

...والمشايخ الجنبلاطية

وفي ١١٩٣ (١٧٧٩) بعد ذلك بمدة من الايام ارسل الشيخ كليب نكد فترامى على سعد الخوري الـذي كان متسلماً تدبير امور الامير يوسف . ان يستعطف خاطره عليه وعلى بني عمه . وكان بينهما محبة قديمة . فاصلح سعد الخوري امره . فقطنوا في المناصف . وصار ذلك ضد ارادة المشايخ الجنبلاطية . فاخذوا في مضاجرة الامير يوسف . وكان الامير يوسف قد وزع مطلوباً على البلاد . فقاموا ضده . وهيجوا مشايخ العقل وبعض المناصب وجمهور العامة . وانهضوهم . فاجتمعوا في عين السمقانية . واتفق رأيهم ان يقوموا عليه ويخلعوه من الحكم . وتوجهوا بجمهور عظيم الى دير القمر . فالتقاهم بعض المشايخ الى الطريق . وتكلموا معهم بما يسكن هيجانهم . وضمنوا لهم رفع هذا الطلب عن البلاد فرجعوا من الطريق .

وفي سنة ١١٩٤ (١٧٨٠) لما رأى المشايخ الجنبلاطية ان الحركة الاولى لم تتم على مرادهم فاخذوا في اقامة حركة اخرى . وعملوا على قتل الامير يوسف ونائبه سعد الخوري . وكان قد صفا خاطر الامير يوسف على المشايخ النكدية . وصاروا اصدقاء له . فتكلمت المشايخ الجنبلاطية سراً مع الامير سيد احمد والامير افندي انهم يقتلون الامير يوسف . وبعد ذلك يقتلون المشايخ النكدية وتطيب لهم الايام . وتكلموا مع الشيخ كليب نكد في شأن قتل الامير يوسف . فاظهر رضاه . ولكنه في الباطن لم يكن يرضى بذلك لعدم الثقة بالامير سيد احمد والامير افندي . لانهم كانوا في الحركة السابقة اكبر المسعفين لها . ولما نزحوا من البلاد تسلما املاكها . وفحصا عن ودائعها . وكانا اكبر الاعداء له . واخيراً تقرر الرأي انهم يفقدون بصر الامير يوسف ويقتلون سعد الخوري . ولاجل التمكن من عهد الامير سيد احمد والامير افندي طلبوا منهما ان يحلفا لهما في البيعة التي يقال لها كنيسة التلة في دير القمر على ان لا يغدرا بهم واتفقوا على ذلك . وفي تاسع عشر كانون الاول ليلة الجمعة اجتمعوا في دار الامير افندي وعند نصف الليل توجهوا نحو الكنيسة ليحلفوا . وكان الشيخ كليب نكد سبق فاخبر الامير يوسف بذلك الاتفاق . ولما توجهوا تلك

الليلة الى الكنيسة ارسل اليه يخبره بسيرهم . وكان الامير يوسف مستخدماً قوماً من المغاربة . فارسلهم ليقبضوا على اخويه . ويحضروهما امامه . فمضوا واكمنوا في طريق الكنيسة حتى مر بهم القوم . فوثبوا على الامير افندي واستاقوه لدى اخيه الامير يوسف . فقام اليه وقتله في الحال . واما الامير سيد احمد فهرب ولم يقدروا على مسكه . ومضى ملتجئاً الى المشايخ بني جنبلاط . وعند الصباح شاع الخبر في كل البلاد . واستهجنت ذلك الناس لعدم سبق العادة به . فأرسل الامير يوسف اعلاماً الى جميع مناصب البلاد يخبرهم بحقيقة الحال الا الامير بشير ابن الامير قاسم لانه كان من غرض المشايخ بني جنبلاط . وكان مقيماً عندهم . ولما وصل الامير سيد احمد الى المختارة . واعلم المشايخ الجنبلاطية بما كان . جمعوا رجالهم وكتبوا الى المشايخ بني عماد وغيرهم وعزموا على المسير الى دير القمر ليطردوا الامير يوسف من هناك . وكان اكثر الناس لما سمعوا بقتل الامير يوسف لاخيه انكروا ذلك واستقبحوه . وكان الامير سيد احمد انفذ الكتابات الى جميع اهل البلاد يشنع هذا الفعل ويعتذر بان مراده كان الاتفاق والالفة مع المشايخ فقط ، لا مضرة اخيه . ولما رأى الامير يوسف ان البلاد قد قامت ضده خشي ونزل الى عكا . وعرض الى احمد باشا الجزار الامر الذي ترقع . ولما بلغ الامير سيد احمد نزول اخيه الى عكا جمع رجال الجنبلاطية والعمادية وحضر بهم الى دير القمر . وكتب الى افراد المتن وبقية المناصب فحضروا جميعاً الى الدير . وعقدوا معه ديواناً واجروا عهوداً واقساماً بانهم لا يقبلون ولاية الامير يوسف . وعرضوا الى الجزار بذلك . وطلبوا منه الخلعة للامير سيد احمد . فلم يحفل الجزار بذلك ، لان اكثرهم كان قد كاتب الامير يوسف سراً بان الكتابة ضده كانت حياء من الامير سيد احمد . وذلك لعدم ثقتهم بالامير سيد احمد . لانه كان خائناً غداراً متقلباً لا يبقي على صاحب . والامير يوسف عرض تلك الكتابات على الجزار . فتمكن عنده . وانعم عليه . وجهز معه عسكراً عظيماً . وحضر الجزار بنفسه الى مدينة صيدا . وتوجه الامير يوسف بذلك العسكر الى قرية علمان في اطراف البلاد . وشاع خبره في البلاد فحضر اليه المشايخ بنو تلحوق وبنو عبد الملك واكثر اليزبكية . وكان حضورهم بوسيلة الشيخ عبد السلام العماد .

الا انه بقي في دير القمر متظاهرًا انه من غرض الامير سيد احمد . وجمع الامير سيد احمد عسكرًا من البلاد واقام عليهم قائدًا ابن اخيه الامير قعدان. وتوجه الامير قعدان بالعسكر الى علمان . وكان ذلك في سادس شهر كانون الثاني . فالتقاه عسكر الامير يوسف . وانتشب بينهم القتال . وما لبثوا قليلًا حتى انكسر عسكر الامير سيد احمد وقتل منه جماعة . وقبضوا على جماعة . واحضروهم لدى الامير يوسف . فعفا عنهم . وامر باطلاقهم . وقتل في ذلك اليوم الشيخ حمود العبد . وكان سيد قومه . وارسل الامير يوسف لبني عمه الذين في دير القمر ان يرتحلوا حذرًا عليهم . ورأى الامير سيد احمد ان حزب اخيه كثير والوزير معه . فرحل مع المشايخ بني جنبلاط نحو وادي التيم . وارسلوا دفعوا الى محمد باشا العظم والي دمشق الشام دراهم لا اعلم مقدارها . وطلبوا منه ان يسعفهم بارسال عسكر فأجابهم الى ذلك كما سيأتي .

وفي سنة ١١٩٥ (١٧٨٠) بعد توجه الامير سيد احمد والمشايخ الجنبلاطية الى وادي التيم حضر الامير يوسف الى الشوف . وتقدمت اليه مناصب البلاد. فنزل في المختارة . وامر بضبط كل ما بقي من اسباب المشايخ بني جنبلاط . وضبط املاكهم . وهدم منازلهم . وبلص كل من ينتسب اليهم . وطلب مصروف عسكر من أمراء المتن . لانهم مالوا الى بني جنبلاط . وقبلوا ودايعهم وحريمهم . وارسل جانبًا من العسكر الى ساحل بيروت مع ابن عمه الامير حسن ابن الامير قاسم لقصاص الامراء المذكورين في املاكهم التي هناك . فترامو على الشيخ عبد السلام العماد والشيخ كليب نكد . وتواسطا امرهم تحت ايراد خمسة وعشرين الف غرش وحضروا الى مواجهة الامير يوسف . وصفا خاطره عليهم . ورفع عنهم القصاص . واما الامير سيد احمد والمشايخ بني جنبلاط . فارسل لهم محمد باشا العظم خمسمئة خيال الى البقاع . وبلغ الامير يوسف ذلك . فارسل اليهم عسكرًا من البلاد ورجال الدولة ولما علم الامير سيد احمد بخروج عسكر اخيه ورأى عسكر دمشق لا يكفي لهذه المهمة . رأى انه لا يقدر على مقاومة اخيه . فراسله وطلب رضاه . فاجابه الى ذلك . وامره ان يرفع نفسه من بين بني جنبلاط . وسمح له ان يحضر الى المتن . فحضر واقام عند الامير اسماعيل قايدبيه في صليما. ورجعت المشايخ الجنبلاطية الى وادي

التيم . وعسكر محمد باشا الى دمشق . وكان الامير بشير ابن الامير قاسم مع المشايخ بني جنبلاط . ومضى معهم الى وادي التيم . وهناك توسط امرهم الامير اسماعيل خال الامير يوسف واخذ رضاه عنهم تحت ايراد مئة وثلاثين الف غرش . فدفعوها وعادوا الى اماكنهم . وارتفع الضبط عن املاكهم . وسمح للامير بشير ان يقيم في بتدين بالقرب من دير القمر . وللامير سيد احمد ان يقيم في الشويفات . وصرف الامير يوسف عسكر الدولة . واستقر في دير القمر وطاعته البلاد .

وفي هذه السنة في شهر ايار حدث مطر عظيم . ففاضت الانهر . وتجاوزت حدودها . وعظم جريان نهر الكلب في كسروان . فساق اخشاباً واشجاراً عظيمة . ولما وصلت الى الجسر صدمته فانهدم . وكان جسراً عظيماً من بناء القياصرة . وصارت الناس بعد ذلك تعبر النهر في القوارب .

وفي هذه السنة اتجد للامير يوسف ولد وسماه الامير حسين .

وفيها حدثت زلزلة في الليلة الحادية عشرة من شهر كانون الثاني بعد المغرب بساعتين . وكان في القمر خمسة عشر يوماً . وكانت رياح في تلك الليلة .

وفيها وزع الامير يوسف مالاً مفروضاً على شجر التوت . كل ما يكفي منه اوقية من بزر القز غرشين ونصف . وسمى هذا المطلوب بزرية . وتدمرت الناس كثيراً من هذا الطلب .

وفيها وزع الامير يوسف ايضاً مالاً على الرجال كل بالغ منهم غرشاً واحداً وسمى هذا المطلوب شاشية . وارسل لجمع هذا المطلوب الامير مراد ابن الامير منصور الشهابي . فنهضت اهالي البلاد . وكاتب بعضهم بعضاً . وعملوا جمعية في ظهر الحسين . واتفقوا على انهم لا يدفعون هذا المطلوب . وكان الامير مراد في الشويفات . فتوجه منهم اناس ليطردوه . وقبل وصولهم علم بذلك فانصرف . وكانت هذه الحركة من عبد السلام العماد . فبلصه الامير يوسف بعشرة آلاف غرش . وحول عليه الامير بشير ابن الامير قاسم وابطل الطلب عن البلاد .

وفي هذه السنة كان احمد باشا الجزار قد جار على المتاولة الذين كانوا لم يزالوا مقيمين في بلاد بشارة . فضاقت صدورهم من شدة الظلم والاهانة .

فاجتمعوا في مشايخهم. واتفقوا على عصاوة الجزار . وتصلبوا للمقاومة . فارسل اليهم عسكرًا من السكبان والمغاربة . وجمعوا رجالهم . وصادموا عسكر الجزار . وانتشبت بينهم الحرب الى اواخر النهار . فانتصر عسكر الجزار . وقتل منهم مقتلة عظيمة . وقتل في ذلك النهار الشيخ ناصيف النصار . وكان عمود المتاولة وافرس اهل عصره . وقتل مقدار ثلث عسكر الجزار . وانهزمت المتاولة بعد ذلك . ونهب عسكر الجزار بلادهم وسبا نساهم واطفالهم . وكانت تباع المرأة بقرشين والولد بقرش واحد . ومن ذلك الوقت رحل الذين سلموا منهم الى بلاد بعلبك . واحتموا عند الامراء بني الحرفوش .

وفي هذه السنة بآخر شهر نيسان حدث ثلج وبرد عظيم بقدر الجوز واتلف اشجارًا كثيرة » .

الشيخ غندور الخوري

وفي سنة ١١٩٨ (١٧٨٧) اتجد للامير يوسف ولد وسماه الامير سعد الدين. وكان قد تعاطى تدبير امور الامير يوسف الشيخ غندور ابن الشيخ سعد الخوري . واعلم ان جميع الحركات والاعمال التي كانت تقع من الامير يوسف كانت جميعها بتدبير الشيخ سعد الخوري وليس منها للامير يوسف سوى الاسم فقط . لان الامير يوسف لم يكن حاذقاً في تدبير الاعمال . وكان الشيخ سعد حكيماً بصيرًا في الامور . وكان ولده الشيخ غندور شبيهاً به في حكمته ولكنه لا يشبهه في وداعته وقناعته . لانه كان متطمعاً كثير الطمع . وكان قد دخل في باب الامير يوسف وتسلم جميع اموره لان اباه كان قد طعن في ايامه واحب الراحة .

الامير اسماعيل

وكان حكم مرجعيون في يد الامير اسماعيل حاكماً حاصبيا . وكان على مرجعيون ستة آلاف غرش يدفعها كل عام الى الوزير ويأخذ مداخيل مرجعيون ومحاصيلها اضعاف الاضعاف عن ذلك . فيكون معاشاً له وللامراء بني عمه في وادي التيم . لان معاش الامراء هناك من يد الحاكم منهم .

فارسل الشيخ غندور الخوري دفع الى الوزير خمسة وعشرين الف غرش على مرجعيون وتسلمها وتصرف بها . ورفع الامير يوسف يد خاله الامير اسماعيل عنها[1] . فضاق معاش الامير اسماعيل وعائلته . واضطر ان يحضر الى دير القمر مترامياً على الامير يوسف . وتوسل اليه ان يتركها له وهو يدفع الخمسة وعشرين الف غرش كل سنة ويقدم له خمسة آلاف غرش ايضا . فابى الشيخ غندور . ولم يقبل رجاءه . وال[illegible] الامير اسماعيل على الامير يوسف حتى قيل انه قبل قدميه ولم يسمح له بذلك [illegible] خائباً وقد لعب به الحنق . فعمد على مقاومة الامير يوسف . وبعد رجوعه الى حاصبيا [illegible]ل الى عكا . ودفع لاحمد باشا الجزار ثلاثمئة الف غرش على حكم جبل الشوف . واتفق معه على ذلك الشيخ قاسم جنبلاط . فقبل الجزار تحت ان يكون معه واحد من امراء الجبل . فارسل الامير اسماعيل استدعى الامير سيد احمد اخا الامير يوسف وفي الحال حضر الى عكا في البحر . ودخل على الجزار . فقبله واكرمه والبسها خلعة الولاية . ولكي يكون له وجه الى خلع الامير يوسف اراد ان يجعل له سبباً . فارسل يطلب منه سلاح البلاد . مع علمه الاكيد ان الامير يوسف لا يقدر على ذلك . فاعتذر الامير يوسف ان ذلك لا يمكن . ولكنه يدفع اليه مئة وخمسين الف غرش يشتري بها سلاحاً . بحيث انه لا ينحرف خاطره عنه فلم يقبل الجزار بذلك . واصرّ على طلب السلاح . واعلم الامير يوسف مناصب البلاد بطلب الجزار . فانكروه . وعمدوا على عصاوته ومقاومته واستعدوا برأي واحد لقتاله . فاتت الاعلام الى الامير يوسف بقدوم العساكر عليه . فالقى النفير في البلاد . فاجتمعت اليه الرجال من كل جانب . وكان عسكر الجزار قد حضر مع الامير اسماعيل والامير سيد احمد . فالتقوا في اراضي جباع . وانتشب بينهم القتال . وجاهد عسكر الامير يوسف جهاداً عظيماً في تلك

---

١) فحدث في ذلك (الزمان) ان رجلًا يهودياً يقال له آصلان كان يتردد الى حاصيا وقراها لاجل التجارة . وكان ذا ثروة وافرة . فقتله بعض غلمان الامير اسماعيل طمعاً في ماله . وقيل انه قتله باشارة من الامير المذكور . . . فاوصلوا خبره الى الجزار . . . فكتب الجزار الى الامير اسماعيل بان يرسل له قاتله وماله فتقاعد عن ذلك . . . فاصدر امراً الى الامير يوسف بان يستولي على مرجعيون . وكان الامير يوسف كثير الخوف من الجزار . ويحب الاكتساب من اهل الجوار . (تاريخ الامير حيدر) .

الموقعة ، فكانت النصرة له . وقتل من عساكر الجزار نحو مئة قتيل . وانهزم من سلم منه . ودخلوا الى القرية فحاصروا بها . وبلغ الجزار ذلك . فغضب على الامير يوسف واهل الجبل . وامر بمنع اهل الجبل عن الدخول الى بيروت وصيدا . وحجب عنهم القوت الذي كانوا يمترونه من المدن . وارسل عسكرًا لمحافظة بيروت . وامر باخذ سلاح النصارى الذين فيها . ودخل كل من خارج المدينة من اهاليها الى داخل السور خوفاً من سطوة اهل الجبل . وكان قد نزل بعض انفار من الدروز الى ما حول المدينة . وصادفوا سبعة انفار من المسلمين فقتلوهم . ووقع الرعب في قلوب اهالي بيروت . وامتدت اهالي الجبل . فاستاقت مواشي كثيرة من نواحي المدينة . وكان بمخزن قمح في الخضر لاهالي بيروت . فضبطوه . واعتز الامير يوسف بسطوة رجاله . واكرم وانعم . وصارت البلاد عصبة واحدة في يده . وفي غضون ذلك حضر احمد باشا الجزار الى بيروت ومعه نحو اربعة آلاف نفر . فخشيت الناس من حضوره . ورحلت اهالي ساحل البحر من سواطنها . واخذ الامير اسماعيل والامير سيد احمد في مراسلة مناصب البلاد واستمالتهم اليها . فمال اكثرهم . وكان الشيخ محمد القاضي قبل ذلك نازحاً الى حوران . فلما علم بقيام الامير اسماعيل والامير سيد احمد حضر الى عكا . وكان عمدة في البلاد . فاخذ يكاتب ويفند ويرغب الناس فاختلفت الاحزاب وظهرت الاغراض . ومال الامر على الامير يوسف . فاحتاج الى الرحيل ونزح من دير القمر الى بسكنتا . واقام هناك ينتظر ما يكون . واقبل الامير اسماعيل والامير سيد احمد الى الدير . وحضر إليها الشيخ عبد السلام العماد والشيخ كليب نكد والمشايخ الجنبلاطية واكثر مناصب البلاد . ولم يتبع الامير يوسف سوى اثنين من بني عمه والبعض من بني تلحوق . ولما رأى الامير يوسف فراغ يده من البلاد . وان الذين كان يتخذهم خاصة له قد خانوا عليه ، قام من بسكنتا وتوجه نحو بلاد جبيل . وكان ذلك في آخر شهر حزيران . وسعى الامير اسماعيل والامير سيد احمد في طلبه . فتوجه الامير اسماعيل نحو كسروان . والامير سيد احمد نحو جبيل ومعه عسكر من قبل الجزار . وكان الامير حيدر اخو الامير يوسف في جبيل فنزح منها . وكتب الجزار الى متسلم طرابلس ان يسلم حكم بلاد جبيل الى الامير سيد احمد . فلم يجبه . وبقي

الامير اسماعيل في بسكنتا والامير سيد احمد في جبيل . وكان الامير يوسف لما وصل الامير سيد احمد الى جبيل ، تقدم من هناك حتى وصل الى اقصى بلاد عكار . فاستقبله عثمان بك الشديد ومحمد بك الاسعد . وقدما له الذخائر والاكرام . ثم انتقل الى بلاد صافيتا . فاستقبله الشيخ سفر المحفوظ بكل اكرام . وانزله احسن منزل .

واجتمع الامير اسماعيل والامير سيد احمد في غزير وارسلا المباشرين في جباية الاموال السلطانية من بلاد جبيل بغير اذن والي طرابلس . وفرضا على كسروان مئتين وخمسين الف غرش . وجمعوا من البلاد اموالًا كثيرة . وضجت الناس من كثرة المظالم . وتواردت الشكايات عليهما الى احمد باشا الجزار . وكتب محمد بك الاسعد الى الامير يوسف ان اخصامه قد رجعوا عن طلبهم . فقام الامير يوسف ورجع الى جبيل . وكان ابنه الامير حسين مقيماً في صليما . فطلبه اليه . وارسله الى بيروت يترامى على الوزير في استعطاف خاطره . وارسل معه هدية يبلغ ثمنها خمسة وعشرين الف غرش . وكان صبيًا فعلمته اصحابه كيف يتقدم الى الجزار . وماذا يقول . فقبله الجزار وانعم عليه بالرضى وامره ان يستدعي اباه لينعم عليه ويعيده الى ولايته . وكان يضمر ان يقبض عليه اذا حضر . وكان الامير يوسف قد حضر الى انطلياس . وتعهد للجزار بايراد الف الف غرش تحت الاعادة الى الحكم . ولكنه خشي من مواجهة الجزار . فابى عن الحضور اليه . واعتذر فلم يقبل الجزار عذره . وعلم انه خائف من لقائه . فضمن له المتسلم وغنائيل السكروج ويونس نقولا وفارس الدهان وشجعوه على الحضور . فحضر وواجه الجزار . وكان ذلك في اليوم الثاني عشر من شهر تشرين الاول . وفي ذلك اليوم عينه قبض عليه الجزار وعلى نائبه سعد الخوري . وسافر بهما في البحر الى عكا . وكان ذلك همًّا عظيماً على الناس لما يعلمون من ظلم الامير اسماعيل والامير سيد احمد مع اشتغال قلبهما بالامير يوسف قبلًا : فكيف اذا خلت لهما البلاد ؟

وبعد توجه الامير يوسف مع الوزير الى عكا ، نهض الامير اسماعيل والامير سيد احمد الى دير القمر . وانتشرت الحوالات في جميع البلاد على الامراء والمشايخ والرهبان والرعايا . واخذت الناس تتقاطر اليهما تهنئة بالحكم الجديد . وهم يدعون لهما باللسان وعليهما بالقلب .

واما الامير يوسف فانه وصل مع الجزار الى عكا . واقام بها نصف شهر . فانعم عليه الجزار . والبسه على حكم الجبل ومرجعيون وحاصبيا . وجهز معه عسكرا . وارسله الى البلاد . فخرج يضرب الارض ليلًا ونهارًا حتى وصل الى دير القمر . وكان وصوله في الليلة الثانية والعشرين من تشرين الاول . وعند دخوله قبض على الامير اسماعيل ووضعه في السجن . وضبط كل ما كان جمعه من الاموال . وهرب الامير سيد احمد فلم يظفر به . وكان عندهما الشيخ محمد القاضي . فهرب ايضاً الى دار الشيخ كليب نكد . فارسل وقبض عليه . وابقاه في السجن مدة . وعذبه عذاباً اليماً . ثم قطع لسانه .

وفي سنة ١١٩٩ (١٧٨٤) كان احمد باشا الجزار قد جمع كثيرًا من الاموال . فارضى خاطر الدولة . وطلب ولاية دمشق الشام . فانعمت عليه بها . فتولاها . ووضع بها متسلماً من قبله . واقام ايضاً في بعلبك متسلماً يقال له سليم آغا . ونزحت الامراء بنو الحرفوش من تلك الديار . وعدل سليم آغا في حكمه . وعمرت البلاد في ايامه . لان بني الحرفوش كانوا اظلم الناس واشدهم جورًا .

وفي تلك الايام كان فارس الدهان نازحاً عن بيروت منذ عشر سنوات . فرجع اليها . وارسل دفع الى الجزار خدمة قيمتها اربعة آلاف غرش . وطلب تسليم ديوان بيروت . وكان الديوان منذ سنتين في يد يونس نقولا الجبيلي الذي كان يقال له ابو عسكر . فرفع الجزار يد يونس عن الديوان . وسلمه الى فارس .

وفي هذه السنة حدث طاعون في بيروت فامات كثيرًا من الناس . وهرب اكثر النصارى الى الجبل . وكان منشأ هذا الطاعون من مصر . وكان قد فعل في مصر ما لم يفعله غيره من الاوبئة السابقة . وقيل انه مات بمصر من الناس في هذا الطاعون ما يفوق عن ثلاثين كرة وبقيت اسواق مصر على حالها من الزحام[1] .

---

١) قال رفائيل كرامة : « وقد صار طاعون قوي زائد الوصف في مصر مات فيه ثلاثون كرة تحت الضبط وامتد الى غير جهات » .
واكد الامير حيدر ان الضحايا « كانوا خمسة آلاف كل يوم » .
على ان المنير عاد فاصلح في تاريخه المطول (نسخة بكركي) فقال : ثلاثون الفاً بدل ثلاثون كرة .

موت الشيخ سعد الغندور

وفي سنة ١٢٠٠ (١٧٨٥) . قد ذكرنا ان الامير يوسف انعم عليه الجزار بالولاية . وكان قد ابقى عنده الشيخ سعد الخوري رهناً على المال الذي تعهد الامير يوسف به . ولما توجه الجزار الى دمشق لاجل تمشية الحج ، اخذه معه . وابقاه هناك تحت الترسيم . فاستحوذ عليه مرض الاستسقاء . ولما رأى نفسه قد وقع في الخطر طلب الانصراف . وارسل الى ابنه الشيخ غندور ان يضمن المال عنه للجزار عن يد قنصل عكا وقنصل صيدا . وكتب اليهما بذلك . فقبلا ان يضمناه تحت رهن يكون عندهما . فارسل اليهما الشيخ غندور ما يقوم بذلك من اسلحة وحلى وغير ذلك . واطلق الجزار الشيخ سعد بضمان القناصل . ولاقاه كثير من اهل البلاد الى الطريق . وصار لقدومه فرح عظيم في البلاد لانه كان يسعى دائماً في خير الجمهور . وكان محبًا للجميع . وبعد وصوله بايام توفي وكان ذلك في خامس عشر شهر آذار في مدينة جبيل . وكان قبل وفاته تسلم مكانه عند الامير يوسف ولده الشيخ غندور ، كما مر . وزاد على ذلك من اخذ قنصلية بيروت من الدولة الفرنساوية وصار له مقام عظيم في جميع هذه الاطراف .

وفي هذه السنة قبض احمد باشا الجزار على ابي عسكر يونس نقولا في بيروت . واخذ منه خمسين الف غرش من غير ذنب ولا سبب .

وفي سنة ١٢٠١ـ (١٧٨٦) قبض الجزار على فارس الدهان ايضاً . وكان قد سلمه ديوان بيروت كما مر . وطلب منه مئة وخمسين الف غرش . وقبض معه على اخيه منصور وابن اخيه ميخائيل . وبعد الشفاعات الكثيرة ترك له خمسين الف غرش واخذ منه مئة الف . وقبض ايضاً على يوسف بارد واخذ منه سبعة آلاف وخمسمئة غرش . وذلك لانه كان ملتصقاً بفارس الدهان .

وقبض على ميخائيل السكروج في عكا . وكان متسلماً ديوانه . وطلب منه مالًا جزيل المقدار . وذلك لانه كان قد وقع في يده كتاب باسم ميخائيل المذكور يدل على وديعة له عند احد اصدقائه وشركة في تجارة . فطلب منه ان يقرضه شيئاً من المال . فاعتذر وحلف برأس الجزار انه لا يملك مالًا فاراه

ذلك الكتاب وامر بحبسه .

وفي هذه السنة اتجد للامير يوسف ولد وسماه الامير سليم .

وفيها كان الامير يوسف لم يزل يترقب الفرصة على اخيه الامير سيد احمد الذي هرب حينما قبض الامير يوسف على الامير اسماعيل . وكان الامير سيد احمد قد اخذ في الوسائل والوسائط . حتى عفا عنه اخوه ورجع الى البلاد واقام في الجرد . ولكنه لم يزل على حذر من الغدر . حتى طالت الايام ورأى ان اخاه قد غفل عنه . فخرج الى الرمثانية يصطاد بها . وهناك ارسل الامير يوسف قبض عليه وقلع عينيه .

واما الامير اسماعيل فمكث في سجن الامير يوسف اشهرًا وتوفي به . فكتم الامير يوسف وفاته خوفاً من الجزار الى ان طال المطال وتناسى الامر .

وفي هذه السنة حدث في تشرين الثاني مطر عظيم . فهدم ابنية كثيرة . واخذ غراساً ومواشي لا تحصى واثني عشر نفرًا من الناس .

وفيها حضر الى صيدا قنصل من قبل الدولة المسكوبية وقنصل من قبل الدولة النمساوية وكان مرادهما الاقامة في دمشق الشام . ونمى خبرهما الى دمشق . فأرسلت اعيان البلد تقول لهما : ان دمشق هي باب الكعبة . لا يقبلون فيها قناصل . فرجع كل واحد منهما الى حيث اتى .

الطيب الاثر الاب مبارك المتيني اللبناني

للاب بطرس ساره اللبناني

تحت هذا العنوان وضعت في مجلة « المشرق » الغراء (٢٠=١٩٢٢ ص٨٥٢–٨٦٢) مقالًا في ترجمة السيد الذكر الاب مبارك سلامه احد ابناء رهبانيتنا اللبنانية ومن رجالها الافذاذ . اقتصرت بذلك على اهم ادوار حياته المليئة باجلّ الفضائل والاعمال الخطيرة دون ان اتوسع بابرز ناحية من نواحي تلك الحياة ، هي الناحية التربوية الماسة .

لذلك ولمناسبة التذكار السنوي الخامس والسبعين الذي احتفل به في الخامس والعشرين من شهر شباط الماضي ، هذه السنة ١٩٥٦ ، المعهد اللاهوتي الشرقي في جامعة القديس يوسف في بيروت ، لمرور ٧٥ سنة على اللقب والامتياز الذي انعم به البابا لاون الثالث عشر على هذا المعهد ، اذ منحه امتياز جامعة حبرية (Université Pontificale) ، فخوّله الحقّ بان يعطي شهادة الدكتوره (الملفنة) في الفلسفة واللاهوت . وبما ان الاب مبارك سلامه اللبناني المترجم هو بكر الذين حصلوا على هذه الشهادة في المعهد المذكور ، وذلك بدعوة خاصة من اساتذته الافاضل الذين رأوا فيه كل الكفاءة لمثل هـذه الشهادة اذ جاز الامتحان الكتابي والشفوي عنها بكل نجاح . لذلك رأيت ان ابين بمقالي هذا انه كان ذلك التاجر الحكيم النشيط الذي ما اتخذ الوزنة حتى اندفع بكل قواه الى المتاجرة بها فربح وزنات عدة . فاقدم بغيرة لا تعرف الملل ولا تقف بوجهها صعوبة ، على الاعمال المجيدة في جنب النشء الرهباني ينشئه تنشئة صحيحة مرتكزة على العلم والفضيلة . واول ما وجه اليه العناية والاهتمام ، هو توحيد الابتداء . وتنظيم المدرسة واتقان الدروس ؛ لان ذلك حجر الزاوية في ثقافة الشبيبة الرهبانية التي عليها امل المستقبل . فننظر نظرة اولى في الابتداء ما هو وكيف كان في الرهبانية .

الابتداء

هو المرحلة او الخطوة الاولى للدخول في الرهبانية . قد فرضته القوانين واقرّه الشرع الكنسي تمحيصاً للدعوة المقدسة . وهو طريقة اختبار او بوتقة

التجربة فيها يُصبَّ المبتدئ ويُمحَّص كما يصب ويمحص المعدن ليخرج ذهباً نقيًا وسراجاً وهّاجاً في بيت الرب صالحًا لان يسير في طريق الكمال الانجيلي وراء السيد المسيح الى جبل الجلجلة، جبل التضحية، مقدماً ذاته بكليتها، ارادته وجسده وكل شيء له على مذبح المحبة الالهية، بحفظه المشورات الانجيلية : الطاعة والعفة والفقر الاختياري، يتمرس بها منصبًا في الاعمال الروحية، مباشرا الخدم والاشغال اليدوية . ومدة الابتداء لا تكون اقل من سنة كاملة تامة وهي السنة القانونية تخصص لدرس الحياة الرهبانية وللقيام بالواجبات الروحية فقط . وفي المنظمات الرهبانية تمتد هذه المرحلة بحسب الرسوم، الى سنتين، وفي الحالة « التوحدية » الى ثلاث سنوات .

ومنذ تأسيس الرهبانية في لبنان في اواخر الجيل السابع عشر (١٦٩٥)، كانت تفتح الرهبنة اديارها لطلاب الترهب، بحيث كان الابتداء في كل دير منها وكانت القوانين القديمة التي اثبتها ببراءة رسولية(١٧٣٢) البابا اكليمنضوس الثاني عشر، تسمح لكل رئيس دير بقبول المبتدئين وتسمي الرئيس باللغة اللاتينية (Abbas) اي « انبا » او « أباتي » ومن هنا توهم بعضهم، على ما يظهر، ان رهبانيتنا « رهبانية توحدية » (monastique) لان القوانين توجب اقامة الخورس اي الصلوات الفرضية باوقاتها والتأمل اليومي وممارسة الاشغال اليدوية داخل الدير وخارجه، وتفرض المحافظة على الحصن كما يجري في اديار الرهبان « التوحديين » . لقد تمشى المؤسسون على هذه الطريقة مؤثرين حياة التنسك والعزلة على سواها اقتداء بكوكب البرية واب الرهبان القديس انطونيوس الكبير الذي جعلوا الرهبانية تحت حمايته وانتسبوا اليه تيمنًا باسمه اذ عرفوا برهبان القديس انطونيوس . غير انهم جعلوا للرهبانية رئيساً عاماً ومجلس مدبرين يؤازرون الرئيس العام في ادارة الرهبانية، وللرئيس العام السلطة على جميع الرهبان والاديار المتعلقة بعضها ببعض تتعاون جميعها وتشترك في سبيل المصلحة العامة، وتتعلق جميع رؤساء الاديار بسلطة موحدة هي سلطة الرئيس العام؛ بحيث لا يكون رئيس الدير مستقلًا كما هي الحالة في رهبانية «توحدية». ولذلك كانت الرهبانية تُعتبر « منظمة رهبانية » اكثر منها « توحدية » .

وعلى هذه الخطة تمشت الرهبانية منذ نشأتها حتى الآن اي منذ جيلين

ونصف الجيل بنيف . (١٦٩٥—١٩٥٦) . وكانت وما زالت بعد تثبيت قانونها (١٧٣٢) كما مرّ، مشمولة بنظر الكرسي الرسولي ورعايته ونظر الاحبار الاعظمين الاسمى؛ يمدونها بالمساعدات الروحية والمادية وينعمون عليها بالغفارين الكثيرة والامتيازات كغيرها من الرهبانيات الكبرى في الكنيسة المقدسة . ويوجهون اليها الزيارات الرسولية عند الاقتضاء دليلًا على رعايتهم وعنايتهم الابوية السامية .

وفي هذه السنة (١٩٥٦) بعد ان امر المجمع المقدس الشرقي باجراء استفتاء عام في جميع الرهبانيات الشرقية لاختيار احدى الحالتين اي « التوحدية » او « المنظمة الرهبانية » ووقف على عرائض الالتماس المتضمنة نتيجة ما اختاره الرهبان، اعلن المجمع المقدس نفسهُ : ان رهبنتنا اللبنانية هي « منظمة رهبانية » لا « توحدية » كما أجمع عليه رهبانها . واظهر اعلانه هذا برسوم كريم مؤرخ ١٦ كانون الاول الماضي ١٩٥٥ تحت رقم ٥٣/٥٦٦ . وجهه الى حضرة الرئيس العام الاباتي موسى عازار، اليك ترجمته بنصه الحرفي :

ايها الاب الجزيل الاحترام .

اتشرف بان اعلن حضرتكم ان المجمع المقدس الشرقي ، بعد الفحص والتروي وبعد ان اعلن سابقًا ما يجب اعلانه في مثل هذه الظروف ، بواسطة « الزيارة الرسولية واختيار الحالة الرهبانية » ، قرر قبول التماس ابناء رهبانيتكم الذين ارادوا ان ينتموا الى رهبانية (لا توحدية) ، بند اول من الارادة الرسولية (Postquam Apostolicis) التي اصدرها قداسة الحبر الاعظم المالك سعيدًا .

فبناء على ذلك وبقوة هذه الاسطر ، يعلن المجمع المقدس ان رهبانيتكم هي « رهبانية لا توحدية » كما تقدم القول ، مع جميع الالتزامات والامتيازات المنوطة بهذه الحالة القانونية ؛ سواء اكان ذلك بالنظر الى المجموع ام الى الافراد . ويكون هذا القرار ساري المفعول ابتداء من السابع عشر من كانون الثاني[1] السنة ١٩٥٦ .

وعلى هذا اكرر لابوتكم عواطف احترامي .

الداعي المخلص لابوتكم

ا. كوسا ساون ✝ الكردينال تيسران

---

١) الواقع فيه عيد القديس انطونيوس الكبير وفيه تجدد النذور الرهبانية كل سنة .

قلنا ان الابتداء لم يكن محصوراً في دير واحد، بل كان مسموحاً به في كل دير من اديار الرهبنة، ذلك تسهيلاً لطلاب الترهب وانماء لعدد الرهبان اذ كانت الحاجة اليهم ماسة في داخل الاديار وفي الخارج. وكان قد أُغلق باب الابتداء في الرهبنة مدة سنوات لظروف قاهرة. فلما تسلم الرئاسة العامة المغفور له الاب مرتينوس سابا الغسطاوي في السنة (١٨٧٥ – ١٨٩٠) امر المجمع الشرقي المقدس بتوحيد الابتداء، وتعيين دير له. فتعين دير مار جرجس الناعمه قرب الدامور. وعين الاب مبارك المترجم (١٨٨٤) معلماً للمبتدئين، وكان ذلك غاية ما تمناه، اذ تمكن من ان يبدأ بعمله التربوي الذي جعله هدفاً له طيلة حياته الرهبانية. واضطر في بادئ الامر، الى قبول المبتدئين في دير سيدة طاميش مدة الى ان اصبح دير مار جرجس الناعمه المذكور، مجهزاً ومعداً لقبولهم. فاتى بهم اليه وكان يرعاهم بعين يقظى وغيرة لا تعرف الملل، يشربهم روحه الطيبة ويرشدهم بالقول والمثل. واستمر على هذه الخطة نحو ثلاث سنين، تخرج فيها على يده عدد غير قليل من الرهبان الناذرين الذين كانوا يثقون به كل الثقة، لما كان يغمرهم به من عناية ابوية ويبذله من المفاداة في سبيل رقيهم روحياً وادبياً. ولما رأى ان فئة منهم معدة لتلقي العلوم، سأل الرئيس العام الاب مرتينوس سابا، ان يسمح له بان يكون استاذاً وراعياً لهم، فلم يوافق على ذلك لبعض صعوبات. فاخذ الاب مبارك على عاتقه تسهيل تلك الصعوبات وصعد بالاخوة الناذرين الى دير مار موسى الحبشي قرب بعبدات، حيث تولى بذاته تدريسهم اللغات العربية والافرنسية وبعض مبادئ اللاتينية. ومع مهمة التدريس هذه الشاقة والاهتمام بالرهبان الدارسين الموكول امرهم اليه، كان يتعاطى اعمال الرسالة لدى الاقتضاء، في القرى المجاورة.

المدرسة الرهبانية في تطورها

قبل الخوض في البحث عمّا اتاه رحمه الله، من الاعمال والجهود الجبارة في سبيل النهضة العلمية في الرهبنة لدن تسلمه رئاستها العامة، يحسن بنا ان نرى ما كانت عليه المدرسة الرهبانية في ذلك العهد. ولا يتناول كلامنا هنا المدارس الابتدائية التي اعتادت الرهبنة منذ نشأتها، ان تقيمها قرب كل دير انشأته او تسلمته[1]،

١) الاب لويس بليبل: تاريخ الرهبانية، مجلد اول بحث ١٢ ص ٣٢٤.

لاجل تعليم الاحداث مبادئ اللغتين العربية والسريانيــة والتعليم المسيحي وبعض القواعد الحسابية ، مما كان كافياً لحاجة الانسان وقيام معاشه في تلك الايام . وبهذه الطريقة كانت تعمر القرية اللبنانية بالايدي العـاملة على حرث الارض وزراعتها ومزاولة بعض المهن والصناعـات بحيث كان لبنان راتعاً بالطمأنينة والامن ، يعيش شعبه بروح الاخاء وحسن الجوار ، عاكفاً على العمل ، بعيداً عن السياسات الخرقاء ، قانعاً بعيش بسيط هني ، فصح فيه المثـل القائل :« فلاح مكفي امير مخفي » كما قيل :« هنيئاً لمن له مرقد عنزة في لبنان » . وفي تلك المدارس على بساطتها وتلقيبها « بمدرسة تحت السنديانه » ، قد نشأ رجال افذاذ قاموا باجلّ الخدم في جنب الدين والدنيا. وقد اتينا على ذلك بمقال في «المشرق» الاغر (٣٠ : ٣٢٠) تحت هذا العنوان :« الرهبانية والعلم » .

على ان الرهبنة ، رغم الصعوبات الكثيرة ، لم تكن لتحجم عن ان تجاري التيار العصري من الناحية العلمية . فانها ، مع محافظتها على مدارسها الابتدائية ، قد حولّت اهم اديارها كدير مشموشة وميفوق وبيت شبـاب وعشاش ، الى معاهد تضاهي المعاهد الكبرى في البلاد وتضم الناشئة على اختـلاف الطبقات والطوائف ، وتشربها روح الاخوة والوطنية الحقة وتغذيهـا مواد العلم الصحيح المرتكز على مبادئ الدين والاداب السليمة ، ليكون منها رجالٌ اشداء امناء في حق ربهم ووطنهم .

لقد مرَّ بنا الكلام على ان الابتـداء لم يكن محصوراً في دير واحد ، كذلك المدرسة الرهبانية لم تكن موحدة في اول عهدها ، بل كان كل دير من الاديار الجامعة يضم عدداً من الاخوة الدارسين يتلقون السريانية والعربية ومبادئ الحساب البسيطة كالجمع والطرح والضرب والقسمة ثم اللاهوت الادبي وبعض قضايا في اللاهوت النظري . وكان ذلك يبدو كافياً في تلك العصور لان ثقافة البلاد لم تكن تتجاوز هـذا الحد من المعارف . وكان الرهبان يؤلفون الفئة الراقية بين مواطنيهم ، ويقومون بمهمة التدريس والتثقيف شأن الرهبـان الغربيين في القرون الوسطى ، وفي القرون التي سبقت الثورة الفرنسية ١٧٨٩ .

على انه لما احتك الشرق بالغرب فكانت البعثات العلمية اليه ، وقـدم المرسلون الغربيون الينا واخذ لبنان بالثقافة الغربية ولا سيما الفرنسية ، اضطرت

الرهبانية الى رفع مستوى ثقافة ابنائها لتحتفظ بمكانتها العلمية فلم ترَ بدّاً من ارسال فئة من ابنائها الى مدرسة الآباء اليسوعيين في غزير في عهد رئاسة الاب سابا العاقوري العامة ١٨٤٥ — ١٨٤٧ . والابوين افرام جعجع (١٨٦٢ — ١٨٧٤) ومرتينوس سابا الغسطاوي (١٨٧٥—١٨٩٠) . ومن ذاك الحين انقسمت المدرسة الرهبانية قسمين :

اولاً : المدرسة في اديار الرهبانية

تقرر دير مار قبريانوس كفيفان اول مدرسة رهبانية نظامية على طراز تلك الايام سنة ١٨٠٨ برئاسة الاب سمعان الخازن العامة (١٨٠٥—١٨٠٨) وكان الدارسون، مع ممارستهم جميع فروضهم الدينية وصلواتهم الطقسية ومباشرتهم الاشغال اليدوية في داخل الدير وخارجه، يتقنون اللغتين العربية والسريانية وعلم اللاهوت الادبي وبعض القضايا الهامة من اللاهوت النظري . ومن اساتذة هذه المدرسة الآباء نعمةالله كساب الحرديني[1] بعد ان تخرج فيها تلميذاً المعروف بقديس كفيفان، ونعمةالله القدوم الكفري، وميخايل غوش التنوري .

وقد تخرج في هذه المدرسة من سنة ١٨٠٨—١٨٧٤ نحو من مئتين وستين كاهناً منهم الآباء : نعمةالله كساب الحرديني الشهير والاب شربل مخلوف بقاعكفرا المعروف بقديس عنايا الذي تتلمذ للكفري وشهد دفن الحرديني اذ كان دارساً . واغناطيوس بليبل الذي رئس الرهبانية مدة ٢١ سنة (من سنة ١٨١١—١٨٣٢) وانطونيوس الفغالي الذي امتاز باللغة العربية وألف فيها ارجوزة ما زالت خطاً، وكراساً مطوعاً لاوزان الشعر ومعجماً باللغة الدارجة. ثم كتاب الزيارة لراحة الانفس المطهرية — وقد جدد طبعه هذه السنة (١٩٥٦) حضرة الاب المحترم بطرس ساره — ومنهم الاب بطرس البجدرفلي الاول الذي جلب مكتبة الآباء القديسين (باترولوجيي) باجزائها الكاملة (Patrologie Migne) وهي لا تزال باقية في الدير، ويواصاف الحاجي، وانطونيوس حنا المشتاني وسواهم ممن تقلبوا باهم الوظائف الرهبانية .

ثم انتقلت المدرسة من دير كفيفان سنة ١٨٧٤ — ١٨٩١ برئاسة الاب

---

١) المشرق ٥ (١٩٠٢) ص ٦٠٥ : زهرة لبنان في ترجمة راهب كفيفان .

مرتينوس سابا الغوسطاوي العامة ، الى بعض الاديار كالقطارة وميفوق وقرطبا وومار موسى الدوار والناعمه . ثم عادت الى كفيفان سنة ١٨٩١—١٨٩٩ برئاسة الابوين مبارك سلامة المتيني ومرتينوس الدرعوني العامة ، وكان اول رئيس للمدرسة في هذه الحقبة الاب اسطفان صقر التاعلي من خريجي جامعة القديس يوسف وكان يدرّس فيها اللغتين العربية والفرنسية . ثم خلفه الاب متى نادر كفرزبنا ثم الاب الياس المشمشاني ، ثم الاب لياوس داغر التنوري كلاهما من خريجي الجامعة المذكورة . ثم الاب نعمةالله الكفري — وكانت مواد التدريس العربية والفرنسية والسريانية وبعض مبادئ اللاتينية نذكر من تلاميذها الآباء مبارك ثابت الديراني وابراهيم حنوش البكاسيني ويوسف حبيقه البسكنتاوي وبطرس ساره التروني وجبرائيل مجلي السرعلي .

وفي السنة ١٨٩٩ تحول دير كفيفان الى دير للابتداء ، بامر المثلث الرحمات السيد البطريرك الياس الحويك الذي كان زائرًا على الرهبانية ، فانتقلت المدرسة الى دير سيدة النصر — نسبيه غوسطا وتولى ادارتها الاب اسطفان صقر ، ثم بعد مدة ، الاب مبارك سلامه المترجم .

وفي اوائل الحرب الكونية الاولى في خريف السنة ١٩١٤ ، انتقلت المدرسة الى دير سيدة المعونات - جبيل . وانضم اليها الاخوة الدارسون التابعون صفوف جامعة القديس يوسف في بيروت والمقيمون في ديرهم مار انطونيوس القريب من الجامعة ، وترك هذا الدير منزلًا لحضرة الآباء اليسوعيين الذين اخرجتهم الدولة العثمانية قهرًا من جامعتهم واحتلتها الدولة كل مدة الحرب (١٩١٤—١٩١٨) . وفي اثناء الحرب (١٩١٧—١٩١٩) ، انتقلت المدرسة الى دير مار سركيس وباخوس - قرطبا . وكان مديرها واستاذها الاب نعمةالله ابي ناضر البسكنتاوي احد خريجي جامعة القديس يوسف ومن اساتذتها .

ولما وضعت الحرب اوزارها ١٩١٩ عادت المدرسة الى دير سيدة المعونات واستمرت فيه حتى السنة ١٩٤٤ ومنها ، لبعض ظروف كانت تتنقل بين هذا الدير (سيدة المعونات) وديري سيدة نسبيه وسيدة ميفوق (١٩٤٧—١٩٤٩) . وفي هذه الحقبة (١٩١٤—١٩٤٩) اي مدة ٣٥ سنة قد تخرج فيها من الآباء من لا يقل عددهم عن المئتين والعشرين كاهنًا ، يقوم اكثرهم بالادارة الداخلية في

الاديار وبخدمة الرعايا في الاديار والمراكز الرهبانية او في الخارج، ومنهم من يتعاطى اعمال الرسالة .

وكانت الرهبانية تفكر في توحيد مدرستها هذه والتمست من المجمع المقدس للكنيسة الشرقية، الاجازة بذلك فتنازل الى قبول الطلب . وتمكنت الرهبانية، برئاسة حضرة الاباتي يوحنا العنداري العامة، (١٩٤٤ – ١٩٥٠)، من الاقدام على وضع الحجر الاساسي وانشاء معهد الروح القدس في محلة الكسليك - صربا - جونيه . وذلك على هندسة عصرية فخمة مستوفاة الشروط الصحية، وضع تصميمها المهندس الشهير انطوان ثابت . وقد كلف هذا المعهد نفقات باهظة قامت بها الرهبانية بجميع اديارها ومراكزها . ولا بدّ لها من بذل المبالغ الطائلة لاتمام مشروعها هذا وفقاً للتصميم الهندسي الموضوع له، اذ يلزمه تشييد الكنيسة وبناء الطابق العلوي الاخير، وتمهيد ساحاته وتنظيم دوره الى غير ذلك من لوازم الهندسة .

وفي ابتداء السنة المدرسية ١٩٥٠ بطلع رئاسة الاباتي موسى عازار العامة فتح المعهد المذكور ابوابه . وهو يضم الآن بجناحين منفصلين فئة الرهبان الدارسين الذين لا ينقص عددهم عن الثمانين دارساً . ثم فئة الاولاد طلبة الترهب البالغ عددهم مئة طالب . يتلقن جميعهم مواد الدروس الابتدائية والثانوية حتى البكالوريا . ويدأبون في درس العلوم الفلسفية واللاهوتية بفروعها . وعلى هذا استقرت اذ ذاك المدرسة الرهبانية موحدةً في هذا المعهد الى ما شاء الله . وفي شهر ايار من السنة ١٩٥٥ الماضية، تقدم ستة من تلاميذه الذين انهوا دروسهم الفلسفية واللاهوتية وحصلوا في فحوصهم على الشهادة وهم الاباء : بولس مسعد وشربل القسيس وبطرس شلفون وفرنسيس الخازن وكميل القزي . وقد أُسندت اليهم الرهبانية ادارة بعض مدارسها المخصصة للنشء اللبناني .

ثانياً : المدرسة الرهبانية في الخارج

بعد ان انهينا كلامنا عن المدرسة في داخل الاديار، نأتي على ذكرها في الخارج لما له علاقة بموضوعنا هذا . في السنة ١٧٢٤ وهب المجمع المقدس رهبنتنا اللبنانية دير مار بطرس ومرشلينوس في رومية، الذي انشأه البابا اكليمنضوس

الحادي عشر (١٧١٧) وسلمهُ الى الاب جبرائيل حوا احد مؤسسي الرهبنة . ولما صار هذا الاخير اسقفاً على جزيرة قبرس ، اعطى المجمع المقدس هذا الدير للرهبنة وامر ان يكون فيه اثني عشر راهباً يتلقنون العلوم السامية ويكونون تحت طاعة المجمع نفسه في ما يعهد اليهم من الاعمال باجازة رؤسائهم. فامتثلت الرهبانية الامر واخذت ترسل من الرهبان من فيهم الكفاءة والمؤهلات للمجاوبة على رغائب المجمع المقدس . وقد وضع البابا اكليمنضوس الثاني عشر قانوناً لتلك المدرسة في الدير المذكور ، يضمن راحة التلاميذ ونجاحهم في دروسهم توصلاً للغاية المشار اليها[1] . وكانت هذه المدرسة هي الاولى الموحدة في الرهبنة ، تخرج فيها عدد وافر من الآباء. الذين خدموا الكنيسة والرهبنة والطائفة بمعارفهم .

ولما فتح الآباء اليسوعيون مدرستهم الاكليريكية في غزير وكان الرئيس العام على الرهبانية الاب سابا العاقوري من الراغبين في العلم ، ارسل الى المدرسة المذكورة عدداً من الرهبان ، وانضم اليهم بعد حين الاب مبارك سلامه المترجم[2] وبذلك كان الاب سابا الرئيس العام واضعاً حجر الزاوية في اساس النهضة العلمية في الرهبانية . وعندما نقلت المدرسة من غزير الى كلية القديس يوسف في بيروت بعهد رئاسة الاب مرتينوس سابا القسطاوي العامة كما مرّ انضم الى الاخوة الدارسين فيها عدد آخر ، منهم الآباء. اسطفان صقر وبطرس عبود واخوه بولس عبود المحامي الكنسي المعروف . واغناطيوس لبوس ، ثم انطونيوس حرفوش وجبرائيل عضيمي ومخايل الحلو ابو شاهين ويوسف غصوب ولياوس داغر وعبدالله عواد.

وكان الاب مبارك المترجم قد انهى دروسه واحرز شهادة الدكتوره في تلك المدرسة ، كما سبق القول واقيم استاذاً على الرهبان الدارسين في دير مار موسى الحبشي ؛ وقد رأى بعد الاختبار الطويل ان الرهبانية تسير سيراً بطيئاً في سلّم الثقافة : لان الذين يدرسون في الجامعة اليسوعية ، هم اقلّية ضئيلة وكثير منهم لا يتمكنون من اتمام دروسهم ، اما لعدم الكفاءة ، او لداعٍ صحي . وكان عدد الذين ينهون دروسهم ، يكاد يتجاوز عدد الاصابع ، اضف الى

١) لويس بليبل تاريخ الرهبانية مجلد ١ ص ٥٧ و٥٨ و ٢٥٣

٢) بعهد رئاسة الاب افرام جعجع البشراوي العامة (١٨٦٢–١٨٧٤)

ذلك انهم كانوا داخليين لا يتسهل لهم القيام بواجباتهم الرهبانيــة كما ينبغي ، فضلاً عن النفقات الكثيرة التي كانت تبذل في سبيلهم .

وبينا هو يفكر في الطرق والوسائل لسدّ هذه الثغرة ، وقلبه يتلهف غيرة على الناشئة الرهبانية وترقيتها الصحيحة بالعلم الكامل والفضيلة الراسخــة ، اذا بالعناية الالهية التي جاءت به الى الرهبنة ووفقته في دروسه ، تواصل الاخذ بيده وتسير به الى الهدف السامي الذي يرمي اليه ، فاتحة امامه مجال العمل واسعاً . ففي الخامس عشر من شهر نيسان من السنــة ١٨٩١ ، اصدر المجمع المقدس الشرقي امرًا بتعيينه رئيساً عاماً على الرهبانية ؛ وهو لم يكن ليفكر في هــذه المباغتة وكانت الوظيفة في نظره خدمة للمصلحة العامة ، موقناً ان تلــك هي ارادة الله فاستسلم لها بكل ما أوتيه من قوة ورغبة في العمل ، مستنداً اليها في الاطلاع بما يلقى على عاتقه من مسؤوليات خطيرة . واخذ يفكر في انشاء مدرسة في مدينة بيروت ، تكون تابعة لكلية القديس يوسف اليسوعيــة .يقيم فيها الرهبان الدارسون ويتابعون الصفوف في الكلية نفسها . وكان يشجعه على وضع فكرته هذه بالفعل المرحوم الاب جبرائيــل اده اليسوعي الذي كان وقتئذٍ رئيساً لكلية القديس يوسف . فاشترى دارًا مجاورة للكلية المذكورة ، هي دار السيد الياس مهاوش الماروني . بمبلغ الف ليرة فرنساوية ذهباً ، لاجل سكن الرهبان الدارسين واتفق وحضرة الآباء اليسوعيين على قبول عــدد غير محدود من الرهبان لمتابعة دروسهم على ما ذكرناه ، بحيث يتسنى لهم اقامــة نظامهم الرهباني وبعض صلواتهم الفرضية في مدرستهم حيث يقيمون . امــا اعاشتهم ففرض الرئيس العام نفقاتها على خزينة الرئاسة العامة وعلى مساعدات من صناديق الاديار . ومنذ ذلك الحين اصبح هذا الترتيب سنة تسير عليهــا الرهبانية حتى ايامنا لاجل القيام بمعاش النشء الرهباني .

وفي خريف السنة ١٨٩٢ فتحت المدرسة الجديــدة ابوابها لقبول عدد من الاخوة الدارسين ، منهم الاب انطونيوس عارج (المدبر فيما بعــد) والاب اجناديوس سركيس الذي رئس الرهبانية معيناً من الكرسي الرسولي (١٩١٠—١٩١٣) . والاب مبارك ابو سليمان (المدبر) وغيرهم . وانضم اليهم الاخوة الذين كانوا سابقاً داخليين في الجامعة اليسوعية . واقام الرئيس العام رئيساً عليهم الاب

المدبر اغناطيوس لبوس حامل شهادة الملفنة بالفلسفة واللاهوت من المعهد اللاهوتي نفسه . وبعد مدة وكل الرئاسة الى الاب اقليموس سلامه ، ثم الى الاب مخايل خليفه راشانا . وكان الرئيس العام نفسه يشرف على هؤلاء الرؤساء عن قرب. واخيراً (١٨٩٣) اقام رئيساً شرعياً على المدرسة الاب اغناطيوس داغر التنوري الذي صار فيما بعد رئيساً عاماً (١٩١٣ — ١٩٢٩) على الرهبانية واشتهر بتقواه وغيرته وتجرده عن حطام الدنيا[1] .

وشرعت المدرسة تسير على محورها القانوني بتوالي الرؤساء عليها ومنهم كاتب هذه الاسطر (١٩١٩—١٩٢٩) الذي له الحظ بان يكون احد المتخرجين فيها . وقد استمرت على خطتها هذه نصف جيل ونيف (١٨٩٢ـ١٩٥٠) . اخرجت ، ما عدا الذين لم يتمكنوا من متابعة دروسهم حتى النهاية ، وهم كثيرون ، جيلاً من الآباء الذين اتموا دروسهم وكانوا من المجتهدين الناجحين . ومنهم من فازوا بشهادة الدكتوره نخص منهم بالذكر المرحومين الابوين مرتينوس طربيه ومرتينوس حجيلي اللذين امتازا بدروسها الفلسفية واللاهوتية وكانا موضوع اعجاب اساتذتها . خدم الاول منهما الرهبانية وكيلاً عاماً ورئيساً عاماً (١٩١٤—١٩٣٨) السنين الطوال ، كان فيها مثال الغيرة والنشاط والتضحية؛ وكان الثاني استاذاً للنشء الرهباني . يغدق عليه العلم من ينبوعه الغزير الصافي ، وعلى معارفه ومواهبه الكثيرة كانت تعلّق اكبر الآمال ، لو لم تفاجئه المنية في مقتبل العمر ، مدبراً عاماً في الرهبانية التي فقدت بهذين الابوين الفذّين رجلين من اعظم رجالها . على ان جميعهم قد تقلّبوا بوظائف الرهبانية وخدموها والطائفة والبلاد اصدق خدمة .

ولسنا نبالغ اذا قلنا ان الفضل في النهضة العلمية في الرهبانية ، يرجع الى رجل العلم والفضيلة الاب مبارك سلامه . وبالكلمة الطيبة التي نجعلها ذيلاً لهذا المقال ، وهي لحضرة الاباتي باسيل غانم الرئيس العام سابقاً (١٩٣٨—١٩٤٤)خرّيج

---

١) وقد الف كتاب « خزانة الواعظين » وغيره من التأملات الروحية المفيدة . ولم يكن يلفى الا قارئاً او مصلّياً . وهو الآن معتزل منذ سنين في صومعة بدير مار يوسف جربتا حيث ضريح امة الله الراهبة رفقا .

المعهد اللاهوتي الرسولي في الجامعة اليسوعية في بيروت، قد القاها بمناسبة ذكرى الخمس والسبعين سنة لهذا المعهد، ما يغني عن الزيادة .

اما ما اتاه الاب مبارك مدة رئاسته العامة (١٨٩١–١٨٩٥)، سنقتصر فيه على النواحي الثلاث التي حصر فيها جهوده بهذه الحقبة القصيرة، اي الناحية الروحية والادبية والمادية . واول ما وجه اليه اهتمامه، توحيد الابتدا والمدرسة وهما اساس النهضة التي كان يرمي اليها . فخصص دير مار موسى الحبشي للمبتدئين ودير مار قبريانوس كفيفان للرهبان الدارسين وجعله فرعاً او مدرسة اعدادية لمدرسة مار انطونيوس التابعة لجامعة القديس يوسف في بيروت . فمن كان من الدارسين مستعداً واهلاً لتحصيل العلوم العالية، ارسله الى هذه المدرسة . وأسند ادارة المدرسة في دير كفيفان الى الاب اسطفان صفر البتاعلي المار ذكره . وكان هو بنفسه اي الرئيس العام يتعهد المدرستين المذكورتين ويوفر للاخوة الدارسين فيها جميع الوسائل لرقيهم العلمي والروحي . وكان حريصاً كل الحرص على حفظ القوانين والنذور الرهبانية ولا سيما نذر الفقر . ويشدد في حفظ العيشة المشتركة بين الجماهير في الاديار والتدقيق في الواجبات الروحية باتقان التأمل اليومي واقامة صلاة الخورس في الاديار الجامعة . ويبعث روح المحبة والالفة في قلوب الجميع . ولم يكن يكتفي بالتحريض والارشاد، بل كان هو في الطليعة امام الجماهير بحفظ القوانين وقيام النظام ومكافحة البطالة موجباً على كل فرد رئيساً ومرؤوساً القيام بوظيفته . يعامل الجميع بروح الابوة والمحبة وكالرئيس الحكيم يعرف ان يجمع بين اللين والشدة بحسب مقتضى الظروف وحالة الاشخاص . وما عتم ان اكتسب ثقة مرؤوسيه بما تحلى به من وداعة وتجرد واخلاص في الخدمة . اذ كان يعتبر الوظيفة خدمة للجمهور عملاً بما قال الرب : «لم يأتِ ابن البشر ليُخدم بل ليَخدُم» (مرقس ١٠ : ٤٥) ورأى من اللازم تجديد وظيفة المعاملة التي كانت اهملت مدة طويلة فاسندها الى من فيهم الكفاءة ليكونوا معاونين له في الادارة العامة مع المدبرين . وكان يشدد في تمكين وظيفة القيّم العام وقيم الدير واخذ حسابات الاديار من دخل وخرج، ضبطاً لمالية الرهبانية وتحسيناً لاقتصادياتها .

وبعد مضي ثمانية عشر شهراً على تعيينه رئيساً عاماً باشر الكرسي الرسولي،

حان موعد المجمع العام في العاشر من شهر تشرين الثاني ١٨٩٢ ، فانعقد المجمع في دير سيدة النصر – نسبيه برئاسة البطريرك يوحنا الحاج . وعلى رغم المقاومات الخارجية ، انتخبه آباء المجمع بالاكثرية الساحقة ، فتجددت له الرئاسة العامة لثقة الجماهير به ، لما كان يبذله من الجهد والمفاداة في مصلحة الرهبانية ونهضتها.

ولم يكن ذلك الا لزيده قوة واقداماً على العمل والسير بخطته المثلى ، مستنداً على ذراع العناية الالهية ، لا تلوي عزيمته مصاعب او متاعب . وفي السنة ١٨٩٣ ذهب كعضو في الوفد البطريركي الماروني الى اورشليم لاجل الاشتراك في المجمع القرباني المنعقد فيها . ومن هناك استأنف السفر مع الوفد الذي كان يرئسه المطران الياس الحويك (البطريرك) ، الى رومية حيث حظي بشرف المثول امام البابا لاون الثالث عشر كما نال الحظوى لدى المجمع المقدس. وبهذه المناسبة اقترح عليه المطران الياس ان يسأل من المجمع شيئاً فاجاب : « اني لا اريد شيئاً مادياً ، انا التمس من عطف قداسته ورعاية المجمع السماح بارجاع الآباء الذين ، لاسباب سياسية ، أخرجوا من الرهبانية » فحبذ المطران رأيه واكبر طلبه الدال على عزة في النفس وشفقة ومحبة لابناء رهبانيته .

فاستجيب طلبه ولدى عودته الى لبنان ، هَمَّ حالاً بارجاع الابوين افرام جعجع البشراوي وميخايل غوش التنوري ، الذي عندما كلفوه نزع ثوبه الرهباني ، أبى ومانع بكل قواه واستمر لابساً اسكيمه قائماً بجميع واجباته الرهبانية ، معتزلاً في بيته مدة سنوات . اما الاب افرام جعجع الذي كان رئيساً عاماً[1] من السنة ١٨٦٢ الى ١٨٧٥ ، مدة اثني عشرة سنة ، كانوا قد انتزعوا ثوبه واسكيمه بالقوة ، لكنهم لم يقووا على انتزاع روحه الرهباني وما كان عليه من تقوى راسخة . فاستمر معتصماً بالصبر سنوات ، متعبداً لسيدتنا مريم العذراء ، يسألها ألا تميته خارج الرهبانية ولو بقي من حياته بضعة ايام . فاستجابت البتول سؤله. وعندما اتاه الرئيس العام الاب مبارك ، ببشرى حصوله على النعمة التي طلبها ، قامت بشراي مدينة المقدمين تهنئه وتشكر الرئيس العام صنيعه وتحفظ له عرفان الجميل . وقد استقبله البشراويون بابهى مظاهر البهجة . « بالمراضة »

١) كان محباً للعلم وهو الذي ارسل عدداً من الرهبان الى مدرسة الآباء اليسوعيين في غزير ومن جملتهم الاب مبارك سلامه المترجم .

والاهازيج اللبنانية ، على رغم رفضه ذلك . وأبوا الا ان يصحبوه هو والاب افرام ابن بلدتهم الأبر ، الى دير تزحيا حيث اقام الاب افرام بفعل الشكر لله تعالى ولابيه القديس انطونيوس . على نعمة رجوعه الى حضن امه الرهبانية . وبحسب طلبه من والدة الله ، خازنة النعم . لم يلبث سوى بضعة ايام . اذ توفاه الله بيتة صالحة بين اخوته الرهبان ، متزوداً الاسرار المقدسة ، مستودعاً روحه بين يدي امه العذراء التي تعبد لها كل حياته .

ومع الاهتمام الدائم بالامور الروحية كان الرئيس العام يوجه عناية خاصة بالشؤون المادية : من تحسين الاملاك واجرا. اصلاحات هامة في الاديار كدير طاميش مقرّ الرئاسة العامة آنذاك وتجديد دير سيدة ميفوق على هندسة عصرية كما هو الآن . وانشاء دير مار يوحنا مارون قرب قرية قبيع وشرا. املاك له وتأسيس دير مار مارون القنيطرة قرب بيت شباب لسكنى الراهبات اللبنانيات القانونيات وغير ذلك من الانشاءات الضرورية .

وعلى رغم انشغاله بالمهام الرهبانية الكثيرة ، لم يكن ينفك عن عمل الرسالة بالقاء الرياضات والمواعظ لدى سنوح الفرصة ويحرض الرهبان على القيام بهذا الواجب المقدس ويوجه بهم الى المدن والقرى حيثما يلزم. وظل مثابراً على خطته هذه المثلى في الداخل والخارج ، الى ان حان وقت انعقاد المجمع العام ١٨٩٥ ولولا ظروف قاهرة لتجددت له الرئاسة العامة واستمرّ قائماً بالنهضة الرهبانية على احسن وجه الى ما شاء الله !

بعد تنزله عن الرئاسة عهد اليه المطران يوسف الدبس بادارة مدرسة الحكمة ردحاً من الزمان . ثم أقيم استاذاً للاهوت للرهبان الانطونيين الدارسين في دير مار اشعيا بعهد الرئيس العام الاباتي عمانويل البعبداتي . وقد انتدبه المثلث الرحمة البطريرك الياس الحويك الى زيارة راهباته بنات العيلة المقدسة المارونيات وان يكون مرشداً لهنّ غير عادي .

وفي السنة ١٩١٠ تعين من المجمع المقدس بواسطة الزيارة الرسولية رئيساً للمدرسة الرهبانية في دير سيدة النصر - نسبيه - غوسطا . وبعدها رئيساً على الاخوة الدارسين في جامعة القديس يوسف في بيروت والمقيمين في مدرسة مار انطونيوس التي انشأها وجعلها تابعة للجامعة المذكورة كما مرّ . وبعد ذلك

اسندت اليه رئاسة المعاملة في اديار المتن . وفي جميع الوظائف التي تقلب فيها كان مثالاً امام الجميع ، لم يكن ليتلكأ عن واجب او خدمة ، على رغم الشيخوخة والمرض . يسير كالحمل بتواضعه ووداعته مع اخوته الرهبان ولا سيما الاخوة الدارسين الذين كان يطيب له الاجتماع بهم والاهتمام بشؤونهم وهم يحفظون له مع عرفان الجميل ، كل محبة واحترام . يلتفون حول شخصه الوقور ابناً وجدوه ، كالابناء الاعزاء حول ابيهم الشيخ الجليل الذي كان يجمع الى وداعة الحمل ، شجاعة الاسد في الدفاع عن الحق وعن القيام بالواجب واصلاح الخلل لدى الاقتضاء. وما كان ليهاب احداً في دفع ما يضرّ بمصلحة الرهبانية او يمس بسمعتها .

وما زال متعاطياً اعمال الرسالة ، تحت عبء الشيخوخة وداء السكَّري ، الى ان دعاه في صيف السنة ١٩٢١ ، المرحوم الخوراسقف الياس الزيناتي لتسوية خلاف بين اهالي بجرصاف وبعد بذل الجهد والنصح والارشاد توصل الى مصافاتهم والتفاهم مع الكاهن خادم رعيتهم . وكان ذلك بمناسبة عيد قطع رأس القديس يوحنا المعمدان في ٢٩ آب من السنة نفسها ، وبعد ان احتفل بالذبيحة الالهية والقى عظة في المحبة وسمع اعترافات الكثيرين ، انهكه التعب وثقل عليه المرض ، فخرّ صريعاً في حومة الجهاد ، شهيد غيرته الرسولية . وبات يعارك سكرات النزع بضعة ايام . واذ كنت واقفاً قرب سريره اقرأ له بعض عبارات من كتاب الاقتداء بالمسيح ، اشار بيده ، وهو بين الوعي والغيبوبة ، وقال : « اقرأ لي عن آلام المسيح » فاخذت باشارته واجبته على رغبته . وكان متعزياً مستسلماً لارادة الله شاركاً آلامه مع آلام الفادي الالهي . وكان لاشارته تلك سببا ، اذ تبين بعد وفاته انه قد دوّن في يومياته هذه الملاحظة اخذاً عن القديس توما : « ان احسن وانجع وسيلة في ساعة الموت ، التأمل بآلام المسيح » . وبينما هو غائص في بحر هذا التأمل ، مشرق الوجه تبت الجنان لفظ النفس الاخير ، متزوداً جميع الاسرار المقدسة . في الثامن من شهر ايلول ١٩٢١ يوم عيد ميلاد العذراء، التي كان متعبداً لها ، لذلك شاءت ان يكون يوم ميلادها يوم مولده في السماء للسعادة الابدية بقرب هذه الام الحنون .

ونقل جثمانه الى دير مار موسى الحبشي حيث كان مقيماً . وأقيم له مأتم

حافل رئس الصلاة فيه المطران بولس عواد مطران الابرشية والمطران اغناطيوس مبارك مطران بيروت وعدد وافر من رؤساء الاديار المجاورة ومنهم الاباء اليسوعيون من بكفيا والكبوشيون من بعبدات وكان جمهور غفير من المشايخ والوجهاء والشعب . وقد رثاه الرئيس العام الاب اغناطيوس داغر ، تلميذه وموضع ثقته ، مبيناً عظم الخسارة بفقده . وقبل ان يورى في الضريح ودّعه صديقه المغفور له الاستاذ نعوم لبكي بكلمة بليغة مؤثرة دلت على ما كان له من محبة ومكانة في القلوب .

ومن آثار قلمه ترجمة كتب عديدة فرنساوية فريدة في بابها . منها ما ظهر مطبوعاً ككتاب « دستور الرؤساء » للاب ڤالوي اليسوعي . « ودستور الحياة الروحية » . ومنها مخطوط « مختصر اللاهوت الاعتقادي » ثلاثة اجزاء . وكتاب « الفضائل الرهبانيــة » ، ملخص عن كتاب الكمال المسيحي للاب الفونس رودريكوس اليسوعي وكان شارعاً بغيرها يوم فاجأته المنية .

واليك الكلمة التي اشرنا اليها بمعرض كلامنا ، نجعلها مسك الختام لما لها من علاقة بهذا المقال . قد دعي الى القائها حضرة الاباتي باسيــل غانم رئيس الرهبانية العام سابقاً والنائب الاسقفي حالياً في زحله . وهو من خريجي المعهد اللاهوتي الرسولي في جامعة القديس يوسف في بيروت . وذلك بمناسبة الذكرى الخامسة والسبعين للمعهد المذكور التي اقيمت في ٢٥ شباط ١٩٥٦

قال تحت هذا العنوان : « كلمة الرهبانية اللبنانية » :

« ارى من واجبي ، وانا ابن الرهبانية اللبنانية ورئيسها العام لسنوات خلونَ واحد خريجي المعهد ، العارف باحداث الرهبانية والملمّ بتاريخها والمطّلع على مراحل نهضتها العلمية والاصلاحية ان أكون في مقدمة المقرّين بجميل المعهد اللاهوتي الرسولي ، التابع لجامعة القديس يوسف الذي نعيّد اليوم عيده الماسي .

كان للرهبانية من يوم أنشئت اكليريكية القديس فرنسيس كسفاريوس في جامعة الآباء اليسوعيين ، ثلاثة مقاعد فقط يشغلها ثلاثة من ابناء الرهبانية تضيفهم الجامعة وتطعمهم وتعلمهم وتربيهم وتثقفهم ؛ وكان بينهم ، في ذلك الزمن ، أخٌ نابه اسمه الاخ مبارك سلامه المتيني تفوق بدروسه فكان اول من حمل شهادة المعهد اللاهوتي العليا بعد ان جعل المعهد اللاهوتي معهداً رسولياً المثلث الرحمة ، الحبر الاعظم ، البابا لاوون الثالث عشر .

فخرج الاب مبارك سلامه من المعهد الى حومة العمل والجهاد ورأسه ملآن علماً وقلبه مشتعل غيرة وراح يبذر بذور مواهبه في مدرسة الرهبانية ويقوّم ما تأوّد من شؤونها ويشرب عقول الناشئة الرهبانية مبادئ العلم الصحيح ، العلم العميق ، ويحث الرهبان الشبان على حبّ المطالعة والتعمق في الدرس والتفتح على حركة العلم والثقافة ويدرّبهم على اختيار ثمينها ويعلّمهم الردّ على غثها . فكان كأنه النار تمحّص ما هو ذهب وتحرق ما هو هشيم .

وطارت له شهرة واسعة بالفضيلة والعلم وحسن الادارة فعيّنه الكرسي الرسولي رئيساً عاماً على الرهبانية فاتّسع حقل رسالته وعكف يدرس شؤون الرهبانية : يشجّع ويقوّم ويصلح ويهذّب ويثقّف ، ولما رأى الحاجة ماسّة الى رجال علم في اللغات والآداب والفلسفة واللاهوت والى رجال فضيلة ابتاع بيتاً يجاور كلية الآباء اليسوعيين واتفق ورؤساء الكلية ان يبدلوا له الثلاثة المقاعد الداخلية باثني عشرة مقعداً خارجياً . فرحّب الآباء اليسوعيون بفكرة تلميذهم وأنالوه ما ابتغى ، فجهّز البيت واختار اثني عشر راهباً ناشئاً ممّن شام فيهم ذكاء واستعداداً لاستيعاب العلوم العالية وأرسلهم الى بيروت ليتابعوا الدروس في كلية القديس يوسف فقامت القيامة على جرأته من الداخل والخارج وندّد بمشروعه كبار الطائفة وعدّوا صنيعه خروجاً على تقاليد الرهبانية . فلم يأبه الرئيس المقدام للمماحكات ولم يبدأ بالاشراك تنصب له ولم يجبن امام الصعاب وما زال يجاهد حتى أتحف الرهبانية بكوكبة من الفرسان ، فرسان الفضيلة والعلم، فرسان التضحية والقلم فكان للرهبانية علماء اعلام منهم : المرحوم الاب اغناطيوس ليبوس والاب انطونيوس حرفوش والاب مبارك ابي سليمان والاب اسطفان بتاعل والاب مخايل ابي شاهين الحلو والاب مرتينوس طربيه والاب اجناديوس سركيس والاب يوحنا العنداري والاب بطرس ساره والاب طوبيا عون من الآباء القدماء، الذين اذا ما ذكرت الفضائل الرهبانية والكهنوتية وتُحدث عن العلم الخادم ، العلم المتواضع ، العلم النافع ، العلم المضحّي أشير اليهم بالبنان فمنهم من علّم ومنهم من ألّف ومنهم من وعظ ومنهم من ربّى وثقف ومنهم من القت اليه الرهبانية بزمام الحكم والادارة فيها فجلّوا في كل ما عملوا ونفخوا في الرهبانية روحاً جديدة روحاً لا عهد لها به

فالى المثلث الرحمة الاب مبارك سلامه المتيني ، تلميذ هذا المعهد الرسولي واول من حمل شهادته العليا يعود الفضل الاول في النهضة العلمية الرهبانية السائرة قدماً في طريق الكمال .

لقد كان مثلاً حيّاً للرهبانية بالفضائل الانجيلية والاكباب على العمل والتأليف والوعظ والارشاد والدقة في حفظ القوانين والامانة الصارمة للرسوم. ولقد حذا حذوه ابناؤه الذين علّمهم وثقّفهم فألفوا الكتب الروحية والفلسفية واللاهوتية والادبية ايضاً وعلّموا وربّوا وثقفوا وعطروا أجواء لبنان بأريج فضائلهم العطرة ورفعوا شأن اسم الرهبانية وأعلوا قيمة الفضيلة بحياتهم المثلى وامانتهم لواجبات دعوتهم الرهبانية والكهنوتية .

فالرهبانية اللبنانية مدينة اذن بنهضتها الى آباء هذا المعهد الرسولي الذين عرفوا ان يبذروا في نفوس تلاميذهم الرهبان هذه البذور الخيّرة ويتعهدوها بامثلتهم الحية وارشاداتهم الحكيمة فنبت الزرع وصار عشباً ثم سنبلاً ثم قمحاً ابريزاً خزنته الرهبانية في اهرائها وراحت تطحنه وتطعمه خبزاً طيباً للعقول وللنفوس في الزمن المؤاتي .

لذلك جئت اليوم أسبّح وانغنى بما لهذا المعهد علينا من اياد بيضاء وأقرّ بما له قبل الرهبانية اللبنانية من خدمات واترحّم على اولئك الآباء اليسوعيين الذين ربّوا آباءنا وثقفوهم واشكر لهم صنيعهم البنّاء . اذ لولا هذا المعهد ولولاهم لكنا ، على ما اعتقد ، في مؤخرة الركب ، في هذا العصر ، عصر العلم والنور ، او لكان من الصعب جداً على رؤساء الرهبانية ان يعطوا الكنيسة ولبنان ما أعطوا من عقول مفكرة واقلام جريئة ومؤلفات قيمة وغيرة فادية ومحبة بنّاءة وفضيلة حقة .

فتفضلوا ، ايها الاب الجليل الفاضل ، عميد المعهد اللاهوتي واقبلوا ، بواسطتي ، شكر الرهبانية على ما أسدت اليها جمعيتكم المباركة من خدمات وانقلوا لحضرة الآباء رؤسائكم امتنان تلاميذكم الرهبان اللبنانيين ، الاموات منهم والاحياء . فكلنا يعرفان جميلكم وتمظيم تضحياتكم والاشادة بافضالكم علينا سواء .

لا زال معهدكم اللاهوتي الرسولي ، كما كان دوماً ، منارة ترسل اشعتها واضواءها الى جميع نواحي لبنان والى جميع اصقاع الشرق يجني على انوارها المتسكعون في دياجير هذا العصر المادي فيأمنون الاخطار ويتّقون الاصطدام بحجارة العثار .

لا زال معهدكم مصنعاً يصوغ الرجال فيخرجون منه كهنة يحملون بين ايديهم الانجيل وفي قلوبهم الله يبشرون بذاك ويحلون هذا في مقامه الاصيل ، المقام الاول فيرجمون الناس الى الله والى مسيحه او يبيدون الله ومسيحه الى الناس ؛ يعملون ويكافحون ويحاربون تحت علم الكنيسة ، المقدسة ، الرومانية ، علم الصليب والقداسة ليساهموا في توسيع ملك المسيح ، مع البابا ووفقاً لتوجيهات البابا ايّاً كان الاسم الذي يحمل . كان الله سيناً مجيباً !!

ردّ على مرداد

بقلم ف . ق .

أتحفنا الاب يوحنا الخوري بكتابه «الرد على ميخائيل نعيمه في مرداد». فنشكر له تحفته. يكفينا اولاً للثناء على كتابه اقدامه على الردّ انتصاراً للحقّ والنور ويكفينا لتقدير عمله هذا اعظم تقدير والاعجاب بجرأته فانه قد تعرّض لمن لا يزال عدد كبير من ادباء عصرنا واقفين امامها بذهول ووجل اعني صاحب «النبي» وتلميذه المفضَّل صاحب «مرداد» فاننا ما سمعنا منهم في محاضراتهم او كتاباتهم الا من يمدح. وقد رأينا ايضاً صحفاً من خيار صحفنا لا تزال تزيّن اعمدتها بمنتقيات من هذا او ذاك حتى في مواضيع دينيَّة. وكم اخذتنا الحيرة لرؤيتنا اسم جبران يتصدر اول صفحات كتابه لرواية حياة يسوع ونحن نعرف آراء صاحب «النبي» في ابن العذراء.

فأهلاً بكتاب «الردّ» اهلاً بالقلم الحرّ الجري. يُحامي عن الحق والدين يُشهر برداد ومبادئه الهدامة وشاياته الكاذبة. اما كفانا رثاء وتخاذلاً امام فلسفة ينبذها العقل والدين معاً تأتينا متبهرجة متلبسة بثياب الفصاحة الكلامية يتجرّع سمومها السُذّج لحلاوة مذاقها.

اكتفى صاحب «الردّ» في دحض اقاويل مرداد ببيان ما تضمَّنته من افتراء واضاليل لكنه لم يتعرَّض للاساس الذي عليه بنى مرداد مبادئه الفاسدة لذلك رأينا الفرصة سانحة لبحث الفلسفة التي عليها ترتكز هذه المبادئ ولم يتجرأ صاحب مرداد ومعلّمه قبله ان يوضحها في واحد من مؤلفاتها العديدة فانهما يلجآن دائماً فيها الى عبارات موهمة ورموز غامضة. فترى جبران يتهجّم متجبّراً و«عواصف» تعابيره تترقرع وتقصف بينما نسمع التلميذ يوقّع بنعومة على اوتار قيثارته بحذر وهدوء.

فما هي يا ترى هذه الفلسفة وما رأي العقل المستقيم والدين فيها.

المذهب الفلسفي الذي يعتمد عليه مرداد في تأليه الانسان وتوحيد ذاته

بذات الله وتوحيد الكيان بأسره دون تفريق بين خالق وخليقة وتأليه كل عمل يعمله الانسان دون تمييز بين صالح وطالح: وكلها اعمال لله. ورفض كل افراز « انا » من « انت » ولي ولك. هذا المذهب الفلسفي هو عريق في تاريخ الفلسفة واشهر الفلاسفة الذين تمسكوا به وعرضوه بجلاء، وحاولوا تدعيمه بالحجج هما اثنان: بلوتان في الجيل الثالث للمسيح وسبينوزا في الجيل السابع عشر واسم هذه البدعة الفلسفية (Panthéisme) اي توحيد الكيان كله في وحدة الله. بموجب تعاليم هذا المذهب انه للكائنات الفردية كلها كيان واحد وذات واحدة هي كيان الله وذاته فتكون اذن هي احوالاً عارضة لهذا الكيان الواحد الضروري هي احوال تتابع مختلفة هي جزء من كيان الله الذاتي منه انبثق واليه يؤول وهذا الكيان واحد فيما نسميه المادة والروح الحيّ والجامد. هذا ما يقوله مرداد للاصحاب السذّج الذين جمهم حواليه ويبهرهم بتعاليمه « يكفي الله الوهته التي انتم نُواة منها[1]. ثم الانسان.. . يوحد فيها (في حياته) ذاته ويعود الى عدن عارفاً الوهيته ووحدته مع الله[2] » ثم: « يا ذاتنا التي لا ذات الاّها »[3]. وايضاً « قولوا الله انا »[4]. وهـذا تعليم استاذ نعيمه نفسه « ان ذاتكم الإلهية بحر عظيم... انكم تسيرون معاً في موكب واحد الى ذاتكم الإلهية[5] ».

ثم ان وجود الانسان ضروري من ضرورة وجود الله فهو اذن ازلي: « عندما وُلد الانسان في الازل »[6]. كذلك كل عمل يصدر من الانسان هو عمل الله فلا معنى اذن للصالح والطالح كل هذه الاعمال ضرورية لا حُرّة وكلها آلهية فلا معنى اذن للعدل والظلم والطهارة والدعارة... لا يخفي صاحب « النبي » هذا المبدأ بل يقرّه جليّاً اذ ينكر ان يكون معنى لما نسميه الخطيئة(ص٢٣٦) ويقره بنوع أجلى مراراً صاحب « النبي » مثلاً في كتابه « الاجنحة المتكسرة » (ص٩٨-٩٩) اذ يكلمنا عن اجتماعات رجل مع امرأة متزوجة بعيداً عن الانظار فيقول « ... لم نخف قط عين الرقيب ولا شعرنا بوخز الضمير لان النفس اذا تطهرت ... تترفع عمّا يدعوه الناس عيباً وعاراً وتتحرر من عبودية الشرائع

١) ص ٢٠٩ ٣) ص ٢٣٨ ٥) النبي: ص ٤٧
٢) ص ٢٣٢ ٤) ص ٢٥٥ ٦) مرداد: ص ١١٤

والنواميس . . . اما الذين سيعيبون سلمى كرامه محاولين تلويث اسمها لانها كانت تترك منزل زوجها لتختلي برجل آخر فهم من السفهاء . . . »

وما يكون معنى الشرائع والنواميس والتقاليد حيث لا خير ولا شرّ بل اعمال الله : ضرورية بضرورة وجود الله .

كذلك لا معنى للسرقة والناس كلهم « انا » فكل ما لهم هو لي . . . فالسارق يأخذ ما هو له .

وما يكون معنى الدين والانسان هو الله فهل يسجد الله لذاته والى من يرفع صلاته وهو هو الله فلا حاجة له فهو كل شيء وكل شيء هو هو . . . هذا ما علمه مرداد « لنوح » قبل ان يكشفه لساكني الفلك . . .

على هذه الفلسفة اذن يريد صاحب مرداد ومعلمه ان نبني المجتمع البشري وعلى مبادئه ان نبني حياتنا بكل اعمالها وان نحكم على اعمال الله فينا وفي الغير : على هذه المبادئ يُبنى السلام ويتوطّد النظام في العالم ويحيا فيها الانسان حياة شريفة لا تفرق بين خير وشرّ ولي والك وانا وانت .

هكذا علم مرداد « نوحاً منذ الازل » وهكذا تعلّم مردادنا من معلمه يوم تعارفا في الزمان وهما واحد منذ ازل الكيان .

تعريف عن الكتب

دين

عقيدة المسلم

بقلم محمد الغزالي

دار الكتاب المصري بمصر – الطبعة الثالثة ١٩٥٤ ، قطع وسط ، ٢٠٨ ص

انه كتاب يود ان يظل بعيدًا عن كل مناقشة توهن الدين بمجموعة آراء فلسفية خالية من التنسيق وهو كتاب يرغب في عرض التعاليم الدينية بمجموعها ليحمل المسلم على الاستمساك بدينه استمساكاً عميقاً كل العمق وينئيه عن جميع التعاليم العصرية الضالة . والخلاصة ان المؤلف يستعرض استعراضاً سريعاً نقاط المعتقد الاسلامي الرئيسية ويحاول باستناده الى القرآن تصويب مجموعة تعليمه برمتها ، ولكنه قد اورد ما اورده بحسب الاساوب الاتباعي بدون ان يفيدنا امرًا جديدًا . وزد على هذا انه لم يكن يبتغي الجديد كما اعلن ذلك في مقدمته فقد اراد الاستزادة من الخبرة واثراء تعاليمه بخبرة رجل رأى الشيء الكثير وصنع الشيء الكثير مع ابناء دينه .

وعندما يقتحم المؤلف المضار الفلسفي ليثبت تصويبه احدى وجهات النظر وغيرها فانه يقيم الدليل على افقه الضيق وعدم تعمقه وقصر نظر فلسفته ضيقاً وقصرًا تجعلان كتابه في عداد المؤلفات الثقافية التي لا تحتوي الا على فكرة يسيرة بدائية .

اما النقطة المهمة التي نرغب ان نلفت اليها النظر بدقة وقوة فهي ما نقع عليه في الصفحة الـ ٤٣ وما يليها حيث يبدو لنا مدللًا على سوء نيته تدليلًا صريحًا لان الكلام على دين لا يدين هو به يقتضي من المتكلم عليه ولو على الاقل الاستمساك باهداب الاحترام ولا سيما اذا ما اعوزته الكفاءة والعلم الكافيين ليتحدث عنه .

فلقد تحدث الكاتب عن المسيحية وكأنه يتحدث عن امر تافه ، فنحن

لسنا من الذين يعمدون الى تبكيت المؤلف على ذلك اذ اننا نطلب منه البراهين الكافية على صحة ما قال كما اننا لن نعمد الى الصراخ لعلمنا ان الحقيقة هي برهان على نفسها وان المسيحية لا تحتاج الى دفاع عنها لانه من الكافي ان ندرس باخلاص ورزانة وموضوعية مبادئها لنسلّم ولو على الاقل بصحة وجودها . اما الكلام عليها كما فعل صاحب هذا الكتاب الذي دعاها بالخرافات فما ذلك لا تقليل للرجل في نظر العلم ، فهو لم يستند الّا الى القرآن فقط ليؤيد وجهة نظره بصدد الوهية المسيح ، فلماذا علّق كل هذه الثقة على كتابه وضرب بيقينه الكتب التي تحدث عنها القرآن باجلال عرض الحائط ، والامر الباعث على الاستغراب في هذا القسم من كتاب مؤلفنا هو امتناعه — انه عاجز كل العجز عن ذلك — عن الكلام على المعجزات التي ذكرها الانجيل وصنعها يسوع المسيح . كما انه قد اورد النصوص التي تبرز ابرازاً عظيماً للشكل الانساني للاله الذي صار انساناً ولا يكترث ابدا اكتراث لتصويب الناحية التي هي فوق الانسان في المسيح . وانه لامر بسيط او بالاحرى انه لمنتهى البساطة عمله كاساوب فهو الخطأ بعينه وغير صحيح — وما عدا ذلك كيف يفسّر الكاتب قداسة هذا الرجل يسوع المسيح ؟ ولكن كيف نزيد من رجل عاجز عن الولوج الى نفسية المسيح الدينية ان يتكلم عن مستترات الدين في الاعماق والتي تؤلف نفس ذلك الذي قلب تاريخ العالم وغيّر اتجاهه .

وبمقدورنا أن نعدّد وجهات النظر التي كان يحسن بالكاتب ان يدرسها قبل اقدامه على قذف شتائمه في وجه المسيحية ، فعليه ان يتأمل من النظر في كتب الذين اهتدوا الى المسيحية بعد ان كانوا من الدّ خصومها النبل الذي نجده فيها والحقيقة الوحيدة التي تسطع منها وتفرض نفسها على كل انسان حسن النية . وفي هذه الآونة الاخيرة كانت التهجمات في لبنان على شخص يسوع المسيح كثيرة ولكنها صدرت عن اناس لم يتفق لهم قط ان تحلّوا بالشجاعة العلمية ليدرسوا باخلاص . فقد عاهدنا النفس على ان نعدّ لهم قريباً هذه الدراسات ، فهل يتحلّون بالشجاعة ليقرأوها ويبحثوا فيها عن الحقيقة ؟ وهذا ما نتمنّاه لهم .

ا . ع . خ .

روح الدين الاسلامي

بقلم عفيف عبد الفتاح طباره

منشورات جماعة عباد الرحمن – بيروت ١٩٥٥ ، قطع كبير ، ٤٤٠ صفحة

يشقّ عليَّ ان اقدّم ايضاحاً عن هذا الكتاب الذي ينتقل فيه المؤلف باستمرار من المضار الديني الى المضار العلمي وهو يريد – مهما كلفه الامر – ان يثبت بالاكتشافات العلمية كل ما جاء به القرآن والدين الاسلامي من اقوال ويشقّ عليَّ ان اعرف كيف ينبغي لي ابدا. الرأي في هذا المصنف ، فقد جاء في المثل السائر ان الافراط في البراهين هو انتفاء اقامة برهان على شيء . .

وثمة مبدأ اروم اوّلاً مناقشة المؤلف الذي يدلّ طبعاً على نية حسنة ممتازة فيه ألا وهو : متى كان الدين في حاجة الى التقدم العلمي لاثبات صحته وقيمته ؟ وهل بالاستطاعة اتخاذ الاقلّ لاثبات الاكثر ، ان الدين هو مضار العلاقات الشخصية الخاصة بالله تعالى . اما العلم فمجموعة النواميس التي تضبط الكون ، واذا شئنا ان نجد اثباتاً في ضروب التقدم العلمية بكل شأن دقيق من شؤون الدين أفلا نخشى ان يصبح العلم قاصراً يوماً ولا ينطبق ابداً على ما نبحث عنه ، ان العلم يتقدم من حيث طبيعته والدين يتقدم ايضاً ، بيد ان العلم يتقدم تقدماً افقياً على حين ان الدين يتقدم تقدّماً عمودياً وهنا الفارق الكبير . راجع من الصفحة ٣٠ الى الصفحة ٤٠ .

ولهذا السبب كان الكتاب المشار اليه « مرافعة شخصية » مما استوجب من المؤلف ان يدلّل على المزيد من بعد النظر وصيابة البصيرة ليميز بين المضامير ويظلّ في الموضوعية بعيدًا عن العواطف والتأولات الجريئة التي وصلت احياناً الى درجة المهزلة : لقد قال المؤلف : يقول القرآن قد صُنع الانسان من طين ، وفي الواقع لو حلّلنا التراب لوجدناه مركباً من ستة عشر عنصرًا ولو حللنا جزءًا من اللحم الانساني لوجدنا العناصر الستة عشر . . . وليس هذا هو المثل الوحيد .

وانني اودّ التشديد على مبدأ آخر قبل الوصول الى بعض النقاط الدقيقة الا

وهو انه قد كان على المؤلف قبل الشروع في الكلام على المسيحية ان يدرس هذا الدين على خير من يمثلونه لانني اذا ما اردت انا نفسي التحدث عن الاسلام فلن اذهب للبحث عن تأويلاتي لدى الزنادقة وانما عند خير مفسّريه المعترف لهم بذلك، اما رينان فليس من المسيحيين المعترف لهم بمسيحيتهم بل هو مارق، وما محاولة التفتيش عن التفسير الحقيقي لديه الّا التدليل اما على سوء نيّة واما على جهل، أوَ لم يبقَ هناك من هم معترف بمسيحيتهم غير رينان ؟

ولقد عمد المؤلف الى ذكر جميع الفرق التي انكرتها الكنيسة الصحيحة فجعل لاقوالها قيمة لا يقرّها رجل عاقل، راجع بصدد كلامه على صلب السيد المسيح الفرق التي يذكرها صفحة ٤٢٣ وما يليها .

وزد على هذا ان المؤلف قد ظلّ خارجاً عن جوهر المسيحية في كلامه عليها فلم يكن بمقدوره ان يفعل غير ما فعل . فلذلك جاءت هذه التفاسير خاطئة او مغرضة : فقوله مثلاً عن مغفرة الخطايا (ص ١٦٧–١٦٨)، هو مغالطة من عيار كبير : ان المغفرة تكون اعظم عندما يتأهب الانسان الذي يستطيع الانتقام لنفسه لينتقم ومن ثم يعود عمّا صمّم عليه .

اما تأويله للتوحيد المسيحي فهو غير صحيح قطعاً (راجع ص ١٤٢–١٤٣) ومن الواجب ان نبيّن للمؤلف في هذا المقام عقيدة التثليث . لاقل درس في الموضوعية عليه : ثلاثة اقانيم في اله واحد، فلماذا يريد الكاتب ان يتمسك كل الاستمساك بابقاء الدين ضمن حدود العقل وان يكون مجرّداً عن كل سرّ يفوقه ولا يتنافى معه، مع ان الاسرار كثيرة في الطبيعة . ولماذا نأبى على الله ان يحيط ذاته بالسرّ : ما من احد رأى الله الّا الذي نزل من السماء، وزد على ذلك ان تقليل العزّة الالهية تقليلاً لنجعل العقل الانساني يحدّها هو تصغير لها، فهل يبقى اذا الهاً ؟

واني لاذكر امراً آخر – على المؤلف ان يفهمه – وهو انه اذا ما دار الحديث عن انجيل السيد المسيح فلا يعني ذلك الا الاناجيل التي ليست الّا رواية واحدة رآها شهود مختلفون، لانه ليس ليسوع المسيح الّا انجيل واحد، وبرجوعنا الى اللفظة اليونانية نرى ان معناها البشارة . فما معنى كلمة اناجيل

في الجمع ؟ (راجع ص ٩٩).

وثمة امور عديدة لا بد من قولها والامعان في قولها وانما يكفيني الآن ذكر بعض النقاط التي استمددتها على سبيل الاتفاق من مطالعتي لهذا الكتاب.

(ص ٨٥) كيف توصل الى التأكيد ان القرآن يعد برؤية الله في الجنة أفلم ينصرف الى احد التيارين اللذين يتحدث عنهما ويتقنسان تفسير الاسلام على هذه النقطة. ألم ينحز انحيازاً زائداً الى التفسير الرمزي، اما في المسيحية فليس هذا التأويل رمزياً بل تحديد العبارات نفسها المستخدمة في انجيل يسوع المسيح بحسب القديس يوحنا، فهل مسموح لمؤلفنا ان يتخذ هذا التفسير الرمزي للاسلام لينسبه الى محمد او الى الوحي ؟

(ص ٩٤) : لقد اكد المؤلف بدون ان يساوره ادنى تردد ان الملائكة « ليس لهم قوة الاختيار » فهل يستطيع ان يفسر لنا كيف تمكنوا من السقوط والوقوع بعيدين في الجحيم عن وجه الله ؟

(ص ١١٧) : اين استطاع المؤلف ان يجد في المسيحية ان النسك يتطلب الانعتاق من الجسد، وان النفس تكون في سجن ويقوم جميع عملها الروحي على الانعتاق منه ؟ ان الجسد لا بدّ من خلاصه مع النفس وهو الذي يعمل لخلاص الانسان بنعمة الله ليصبح كالنفس هيكل الروح القدس بواسطة سر المعمودية.

(ص ١١٩) : انه ليخجلنا ان نشهد الكاتب يعيد بعض التأكيدات الرائجة بدون تمحيص وتدقيق : ان الرهبان ورجال الدين لا يشتغلون شيئاً فهم قابعون في ديورهم تاركين الانسانية تتخبط لوحدها، فهل درس مؤلفنا تاريخه العام ؟ أفلم يرَ ان الرهبان ورجال الدين هم الذين انشأوا اوروبة وانهم هم الذين اشتغلوا عندنا وانشأوا هذه البلاد التي يسكنونها، وزد على ذلك — وانما من الواجب التحلي بنفس تشربت المبادئ الدينية لفهم هذا الامر — ان الذين لا يخرجون من ديورهم هم انفسهم لهم من الجدارة ما لا يقل عن غيرهم وذلك بصلواتهم وتضحياتهم واعمالهم ليصبحوا افضل مما هم ويخلصوا نفوسهم ويفيدوا المجتمع مستفيدين من نعم الله.

(ص ١٢٤) : ان ما قاله عن تعاليم القرآن الادبية هو عينه ما يأمر به

الانجيل امرًا اشد واقوى . اما المؤلف فقد انكر في الصفحة السابقة على كل دين من الاديان ان يكون قال ما قاله القرآن ، فلذلك من الواجب ان نوعز اليه بان ينعم النظر في مطالعته للانجيل انعاماً اشد انتباهاً .

(ص ١٤٢) : اين استطاع الكاتب ان يجد هذا التأكيد الباعث على السخرية والهزء ، الا وهو ان المؤمن يعبد كهنته واحباره ، لا شك ان هناك نية سيئة مبيّنة في تأكيده لمثل هذا الامر ، فان الكهنة والاحبار قد وجدوا في كنيسة يسوع المسيح للخدمة والتعليم وابلاغ حياة النعمة بواسطة الاسرار الى هؤلاء الاعضاء الذين هم المؤمنون .

(ص ٢٩٣) : بصدد الطلاق ، يريد الكاتب مها كلفه الامر ان يجعل من الهجر الموجود في المسيحية ، وتبرّره اسباب قانونية دقيقة ، طلاقاً ، ان المغالطة لسهل ترويجها اما اذا كان الزوجان لا يستطيعان ان يتزوجا ثانية فما ذلك بالطلاق . اما اذا عاش كل منهما بحسب هواه وكان فاسقاً ، فذلك امر لا ينكر ، وانما من الواجب التمييز بين الامور .

(ص ٢٨٦) : لقد اوضح التاريخ وعلماء الاجتماع كليفي برول (Lévy Bruhl) لقد اوضحوا ان تعداد الزوجات هو ضرر ، اما اذا قال المؤلف ان ذلك سعادة وفلاح من الوجهة العلمية ، فما قوله الا تجاوز لحدود العلم . اما ان اكد ان القرآن قد سلم بذلك فان القرآن لم يحدّد الامر تحديدًا باتًا قاطعًا لان تحليل مفهوم الحب فلسفيًا يفضي الى تأييد قيمة الزواج الموحّد اذ ليس بالاستطاعة ان تحب بدرجة متساوية اشخاصاً عدة . فاذا لم تكن المرأة الثالثة او الرابعة محبوبة فانها تصبحان كأنها عبدتان .

وثمة نقاط عدة اخرى تستحق البحث والمناقشة غير اننا قد اسهبنا في الكلام فلذلك يسرنا ان نكون قد استطعنا افادة المؤلف بعض الفائدة لنحثه على استمداد معلوماته من المصادر الصحيحة لانه من السهل على المرء ان يستمدّ معلوماته من هنا ومن هناك فيعتقدها حقيقية مع انه قد زلت به القدم وابعدته عن الحقيقة اشواطاً واشواطاً .

ع. خ.

فلسفة ودين

The Communist war on religion, par GARY-MAC EOIN...The Devin — Adair Compagny. N.W. 1952, 264 pp. 20×14 cm.

ان هذا الكتاب الذي تآزر في وضعه عدد كبير من المؤرخين هو تاريخ الكفاح المستمر الذي تدأب فيه الشيوعية للقضاء على الدين في جميع البلدان التي استولت على مقاليد الحكم فيها .

ويوضح الفصل المخصص بروسية عدم مهادنة الشيوعية في قراراتها لاحتمال وجود مناهض لها او محايد لتسمي حرية الاعتقاد الحرية « الباطنية » .

فمنذ سنة ١٩١٨ قد حرمت التعليم الديني في المدارس وحتى في الخاصة منها ومن ثم كان تحريم نشر الكتب والصحف بدون اذن منها فعمّت المدارس والمسارح ودور السينما والصحف التعليم الالحادي والمادي فاستحال على من يظهرون معتقداتهم الدينية ايجاد عمل لهم .

ولقد جاءت سنة ١٩٣٩ تدلّ على مرحلة جديدة اذ عرض الشيوعيون على رؤساء الكنيسة الارثوذكسية ان يتفقوا معهم وذلك في سبيل توحيد الشعب في الحرب الوشيكة النشوب ضد الغرب : لقد عرضوا عليهم حرية اتيان الشعائر الدينية مقابل تأييدهم للنظام القائم ، فانتخبوا سرجيوس بطريركاً فاقام الصلوات وجمع الصدقات للجيش الاحمر واعطوه مقرّاً له قصر السفارة الالمانية ، ومنحوا خلفه الكسي وسام الراية الحمراء فاعلن شجبه للفاتيكان وواشنطون ولندن ، وحظيت الكنيسة الارثوذكسية في الظاهر باساقفتها وكهنتها بيد انهم اصبحوا في الواقع موظفين من موظفي العهد .

ولاسباب سياسية شمل هذا الاتفاق الكنيسة الارمنية . اما الكاثوليك والبروتستانت واليهود فلم تعرف اضطهاداتهم لهم مهادنة ، ففي سنة ١٩٥١ لم يبقَ يتمتع بحريته من الكهنة الكاثوليك الا كاهنان لانهما كانا في الواقع اجنبيين ومحصورين في الحي الديبلوماسي .

اما الفرق الدينية الاسلامية فكانت باستمرار موضوع الحملات الشعواء عليها سنة ١٩٥٠ اذ كانت الشريعة الاسلامية في طريق تصفيتها في المتحف الديني الذي افتتح سنه ١٩٥١ في طشقند .

وفي تشيكوسلوفاكية قد اختلف الوضع عن غيره اذ ظن الكاثوليك وهم الكثيرو العدد ومن اصحاب الصحف ذات النفوذ الواسع والمستشفيات العديدة والمدارس المختلفة ان في مقدورهم التعاون مع الشيوعيين على اساس حسن النية وذلك سنة ١٩٤٥ عندما تسلموا الحكم فاصطدمت مجهوداتهم في سبيل التوافق معهم بخطة السيطرة الشاملة التي ارتسمها الشيوعيون ولم ينحازوا عنها قيد انملة فحلّت منظمات الشباب الكاثوليكية وتعمّم تعليم الماركسية في المدارس التي انتقلت جميعها فوراً الى يد الدولة وبدأ التهجم على الفاتيكان الخ .

وفي اثناء انتخابات سنة ١٩٤٨ لما قدمت الحكومة لائحة وحيدة باسماء المرشحين وجميعهم من الشيوعيين ارادت ان تفوز بتأييد الاكليريكيين لتلك اللائحة فرفض الاساقفة النزول عند رغباتهم وامروا كهنتهم بالوقوف على الحياد فثار ثائر الشيوعيين وحملوا حملات نكراء على الفاتيكان وقرروا ان يقطع علاقات الاساقفة به ووجهوا التهم الاخلاقية للاكليروس الكاثوليكي واقفلوا المدارس الاكليريكية وعمدوا الى تصفية الجمعيات الدينية وارسال رجالها الى معسكرات الاعتقال فكابد الاكليريكيون المجاعة بسبب مصادرة الشيوعيين لاملاك الكنيسة وبحرمانهم الصدقات .ومحافظة الدولة على دفع مرتبات الاكليريكيين المتأكدين .ن « ولائهم سياسياً فقط » .

واوجدت الحكومة في الوقت نفسه «عملا كاثوليكياً» مصطنعاً لحسابها ووضعت تحت تصرفها جريدة كاثوليكية قديمة .

ولقد انتبذ الكرسي الرسولي المقدس « ذلك العمل الكاثوليكي » الذي اصطنعه الشيوعيون، فابلغ الاساقفة والكهنة على رغم مجهودات الحكومة وتهديدها حكم الكرسي الرسولي للشعب فاتهمتهم الحكومة بانهم خائنون وبانهم عملاء اميركة واحتجزت اختام رئيس الاساقفة بيران (Beran) واستخدمتها في اصدار تعليمات اسقفية كاذبة ووضعت رئيس الاساقفة تحت مراقبة رجال الشرطة وفرضت على الكهنة ان يقسموا للعهد يمين الولاء . فطلب الاساقفة ان تكون اليمين مع تحفظ ضد كل ما يناقض نواميس الله تعالى والكنيسة فرفضت الحكومة طلبهم وشرعت منذ ذاك الحين بسجن الكهنة الذين ابوا توقيع امضاءاتهم بدون هوادة .

وفي عام ١٩٥١ كان عدد الرعايا التي لا كهنة عندها سبعين في المئة ، اما الحكومة فكانت تؤهب في مدارسها الاكليريكية وعلى نفقتها اكليروساً موهوماً. وجاء الفصل المخصص بهنغارية على ذكر قصة شبيهة بهذه القصة : كالقاء الحجز على المدارس وايجاد حزب كاثوليكي كاذب تغذيه الحكومة على نفقتها .

والامر الجدير بلفت الانتباه على الخصوص هو كيفية تنظيم الطرق المستخدمة في دعوى الكردينال مندزنتي (Mindszenty) وغيره من الذين وجهوا اليهم التهم .

وانا لنرى في الفصول التالية المخصصة باوكرانية ورومانيـة وبلغارية ويوغوسلافية والبانية والدول البلطيقية وبولونية والمانية نفس التوسع اللئيم الخالي من الشفقة في اساليب التضيق والتشنيع والتدخل .

والفصل الاخير الذي يعنى بالصين وكوريه فانه يذكر بعض الذكر مواعيد سوء الوضع فيها سوءاً كبيراً من موعد صدور الكتاب سنـة ١٩٥١ ويشير صراحة الى المكان الذي تمركزت فيه الاضطهـادات : كمكافحة « شبكة الاستعمار الغربي ». اما ذلك فيساعد على فهم مجهودات الحكومة الصينية لتوسيع حركة « ضروب الاستقلال الذاتي الثلاثة » ـ استقلال الكنيسة الصينية الذاتي لادارة نفسها وتلافي مواردها وجمع شملها ـ الحركة التي تؤدي عملياً الى الانشقاق وفي مثل هذا المقام نجد ايضاً الافتراءات والتهم بحق المرسلين ونجـد اغلاق المدارس والحملات الصحفية وحلّ المنظمات الدينية .

هذا هو الكتاب المعتدل في ارائه ولكنه حافـل بالوقائع . والذي لا يستغني عن مطالعته من يودّ الادلاء بحكم على نيّات العهـد الشيوعي بصدد الاديان ولا يقوى على عدم قراءته من يرغب ان يعرف عملياً ماهيـة السيطرة الشيوعية على بلد من البلدان .

ا . ك .

الاسلام والمناهج الاشتراكية

بقلم محمد الغزالي

الطبعة الثالثة ١٩٥٦ – مطبعة دار الكتاب – ١٨٣ صفحة ، قطع وسط

لا يثبتنا هذا الكتاب الآخر الذي يصدره المؤلف الّا على الرأي الذي ابديناه بصدد كتابه على تعليم الاسلام . وان الكاتب لرجل عملي يروعه كل ما هو

حياة باطنية وروحية ، فقد اعطى بعض ايضاحات معروفة حول نقاط تعليم اجتماعي: «كالتأمين الاجتماعي والطبقات الكادحة وغيرهما.» ولكنه لم يتمكن من الوصول الى القبض على ناصية موضوعه ليفصل بين ما هو مبدأ الفكر الانساني الحقيقي الابدي — الذي يعتقد ان البحث فيه اضاعة للوقت — وبين التأملات المحسوسة الناجمة عن التجربة اليومية في الفرع الفلاني او الفرع الآخر للعمل ، ولست اودّ ايراد مثل على ذلك غير تعريفه للدين: « لكن الدين هو النظرة السليمة والعقل الرشيد والانظمة العمرانية التي تتجه اليها الفطرة ويستريح اليها العقل ما دامت تمشي في حراسة الضمير اليقظ للدخول بالله. . . الدين هو الضمير الانساني».

ولا بدّ من كتاب كامل لمناقشة هذا التأكيد البسيط الخاطئ ، فمتى كان الدين خليطاً مع العقل المستقيم والفطرة السليمة. واذا ما اكد المؤلف قيمة القرآن الموحاة فعليه ان يؤكد بحسبها ان الدين هو العلاقة الشخصية بالله من خلال كلمته الموحاة لكنه قد كلف نفسه عناء القول لنا ان التصوف هو خداع (ص ١٧٦) : دعونا من فلسفة التصوف التيبي ومن فلسفة المادية الصغيرة.

ونودّ ان نطلب من المؤلف الذي يدرس في هذا الكتاب فلسفة الفقر والغنى ان يعمق قليلاً دراسته للفلسفة وان ينضج موضوعاته قبل اقدامه على ان ينشر في الجمهور توكيدات مبتذلة كل الابتذال ليجعلها كأنها مبادئ تربوية لعقلية ابناء عصره ، وان نصيحتنا له هي الانصراف عن الاهتمام لافكار يخطئ فيها غالباً لكي لا يعنى الّا بتدوين الاحداث. ا. ع. خ.

الاسلام في القرن العشرين : حاضره ومستقبله

بقلم عباس محمود العقاد

الطبعة الاولى ١٩٥٤ — مطبعة دار التأليف ١٨٤ صفحة — قطع صغير

ما كان اشدنا رغبة في ان نرى لدى اديب مشهور كالعقاد نفساً يتجلى فيها مزيد من الصفاء في عرضه لموضوعه الذي ودّ فيه ان يتفوّق الاسلام على بقية اشكال الاديان القائمة مهما كلفه الامر : فقد حمل على عدد كبير من الاديان الموجودة وراعى جانب المسيحية ، افيعرف المسيحية معرفة وافية لترى ان الذي ينتقده وان الذي يتمنى ان يراه في الاديان انه يجده غزيراً فيها ،

ولكن العقاد لا يودّ ان يجعل من كتابه كتاب تعلم بل تاريخاً : الا وهو تاريخ الاسلام بشتى فرقه في القرنين التاسع عشر والعشرين ، اما ما تقع عليه من احصاءات عنده فيمكن القارئ ذا الالمام بالتاريخ ان يفاد منها لانها تعطيه فكرة عن انتشار الاسلام في العالم .

ومن الواجب الاحتراز عند قراءة فصوله الثلاثة الاولى التي اتخذ فيها المؤلف دور المحامي المدافع ، ومن الواجب ان تتخذ اثباتات المؤلف نقطة فنقطة لننقده على ما جاء به بصدد الزواج وتعداد الزوجات الخ . فالمسيحية كانت منذ وجودها تقول بالزواج الموحّد وهذا ما يبدو ان الكاتب قد جهله ليستند الى وستر مارك الذي يستمد منه نتيجة يودّ ان يجعلها شاملة للمسيحية وذلك هو الخطأ بعينه . . . فما احرانا بمعرفة ما نريد ان ننتقده معرفة صحيحة. ا.ع.خ.

مؤتمر الشهداء

بقلم عصبة من الكتاب الاحرار ، مهد له يوسف ابراهيم يزبك

منشورات جريدة اليوم – بيروت ١٩٥٥ – ١٧٩ صفحة متوسطة .

انه عصر برمته وعهد باسره يعود الى الحياة في هذه الصفحات التي يقوم بها الحزن والالم الى جانب عزة النفس والاختيال تيهاً ، فجميع اولئك الشهداء الذين نردّد اقوالهم واسماءهم وكانت دماؤهم بذاراً لمجدنا وعزتنا هم ماثلون امام اعيننا اكثر من اي انسان كان وهم يرشدون الابناء وابناء الابناء الى طريق المفاخر الواجب عليهم انتهاجها : كحب الوطن والشجاعة ليدافعوا عنه ببذل الدماء .

واننا لنشكر الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك على الرغبة التي اوجدها منذ بضع سنين في افئدة اللبنانيين في تاريخ بلادهم رغبة غدونا معها بدرجة لا نستطيع ان ندير الظهر الى تاريخنا . ا. ع. خ.

The evolution of public responsability in the middle East. — Publisched by the Middle East Institute. Washington, D.C. 1955 — 118 pp.

انشئ معهد الشرق الاوسط في واشنطون سنة ١٩٤٦ وغايته التعرف بالشرق الادنى الحديث فهو يقيم المحاضرات عن اوضاع الشرق الادنى الحديث

ومشكلاته وذلك فضلا عن الصحف الدورية المهمة التي يصدرها « كجريدة الشرق الاوسط » والتقرير عن الشرق الاوسط .

ولقد جمعت سلسلة هذه المحاضرات في كتاب عنوانه تطور المسؤولية العامة في الشرق الاوسط (The evolution of public responsability in the Middle East)

وانه لمن الصعب ترجمة كلمة (public responsability) لانها تتناول اوضاعاً شتى فهي تشير الى الاهمية التي يعلقها الاهلون على الشؤون السياسية وتتناول امر تنبيهم للحسّ الوطني واستشعارهم لحقوقهم وواجباتهم كالشعور بالمصلحة العامة لدى الحاكمين ، ولا ريب في ان الامر هنا يتناول بلدان الشرق الادنى التي وصلت جميعها الى الحكم الذاتي او هي في طريق الوصول اليه كما يتناول ظاهرة جديرة كل الجدارة باعارتها الانتباه لانها تتحكم بمستقبل هذه البلدان .

والمحاضرة الاولى التي القاها ت . كويله يونغ (T. Cuyler Yong) كان موضوعها : الشرق الادنى كما يراه الاميركيون ، وقد جال فيها جولة سياسية مالية في جو الشرق الاوسط ، فبحث اولًا تقدم الشعور بالمسؤولية في هذه البلدان حيال العالم الحرّ ومن ثم المجهودات المبذولة في تركية وايران والعراق لايجاد الحلول الحيّة لقضايا الاحتكاك بالغرب كقضية « قناة السويس مثلًا » ولتذليل العقبات التي تصادفها اميركة لكي تتبنى سياسة مقرّرة في الشرق الاوسط وتؤمن مسؤولياتها فيه كحكم او كمساعد ، ومن ثم بحث بعد ذلك ما قطعته تركية ومصر وايران والعراق من اشواط في التقدم باستشعارها بمسؤوليات الحكومات حيال شعوبها وحيال المصلحة العامة .

واستعرض السيد انور علي بعدئذٍ وجهة نظر بلدان الشرق الاوسط في الوضع الحاضر مبيناً اهمية هذه المناطق الستراتيجية وكيف اتفق قيام شعور العداء فيها للسيطرة الاجنبية واوضح تيقظها الوطني وتجددها الاجتماعي بقوله : ان سبب عدم الاستقرار في هذه المناطق سيظل العاملان فيه استمرار ضغط التنظيم الاقطاعي او القبلي واستياء الجماهير المتفشية فيها الامية ، ومن ثم تصدى المحاضر الى استعراض موارد الشرق الادنى — كالزراعة والبترول واليد العاملة والى المجهودات المبذولة في تركية ومصر والعراق بسبيل انعاش الانماء الاقتصادي وادخال الاصلاح على ملكية العقارات — مشيرًا الى الحاجة الى رأس مال والى

التآزر الدولي ودلّل على النقاط التي لبرنامج انعاش زراعي واقتصادي يقوم فيها الاعتدال ان يرمى اليها .

ودرس السيد بادو (Badeau) امر الاستقرار بين حكومات الشرق الادنى .وقال ان السبب الاول في عدم استقرارها كان اصطدام الرغائب فيها بالاستقلال التام بالاحتلال العسكري لهذه المناطق ذات الاهمية الستراتيجية احتلالًا اقتضته الحرب العالمية الثانية ، اما السبب الثاني فتأتى عن نقصان تنظيم جماهيرها تنظيماً سياسياً لتظل شديدة الجهل للقضايا السياسية وللروح العامة ولتبقى سهلة اثارتها ، واوضح ما يقوم من صعوبات لرفع مستوى التعليم ولاقرار الاصلاحات الاجتماعية الضرورية فيها .

وعالج السيد جورج لنكزونسكي (M. Georges Lenczonski) هذه القضية نفسها وانما بشكل اخر : اي عما اتفق من امر تصنيع موارد البلاد الطبيعية وغيرها مشيرًا الى تغير تكوينها الاجتماعي والى الشؤون الاجتماعية الناجمة عن ذلك والى ما لها من خطورة . ومن ثم الى الامور السياسية الخارجية التي اوجدتها ضرورة تأمين المساعدات المالية والصناعية ومن ثم بحث السيد محمد كبير لودين (Mohammad Kabir Ludin) بحثاً خاصاً حالة الافغانستان وبحث دون برتز (Don Peretz) وضع اسرائيل والسيد كاظم كولك (Kasim Kulek) وضع تركية.

ومحاضرة السيد ستيفن دورسي (Stephen Dorsey) بصدد استياء الفلاحين والطبقات العاملة استياء اجتماعيًا وما يثيرونه من شؤون هي محاضرة شيقة . اما السيد الفرد كارلتون (Alfort Carleton) فتحدث عن العمل الثقافي المتبادل وعن المسؤولية العامة .

وليست محاضرتا السيد ج. ف. الن (G. V. Allen) والكولونيل تاكسيس (Taxis) الاخيرتين الاولى حول دور الولايات المتحدة والثانية حول السلامة الاقليمية والعالمية باقل اهمية .

وحري ان يطلع على هذه البيانات المتتالية التي جاء بها رجال اختصاصيون عن فهم عميق ونظر بعيد جميع من يريدون فهم مشكلات الشرق الادنى الحالية ويرغبون في استنباط المستقبل منها .

تاريخ وادب

الصابئون في حاضرهم وماضيهم

بقلم عبد الرازق الحسني

مطبعة العرفان – صيدا ١٩٥٥ ، ١٢٩ صفحة ، قطع كبير

لا مندوحة لنا عن شكر المؤلف على الدراسة التي اتحفنا بها عن الصابئة فيغتبط جدّ الاغتباط اللاهوتي والمؤرخ الديني اذا ما عثرا على دراسة غنية بالمستندات ومبتكرة احياناً لتزودنا بمعلومات جديدة لان المراجع على الصابئة صعب الفوز بها .

وعلى الرغم من ندرة هذه المستندات فقد اغترف المؤلف من مراجع جمّة وعرف ان يبوّب موضوعه ليقدمه لنا دراسة بسيطة واضحة في خطوطها الرئيسية .

ويشتمل هذا الكتاب على فصول ستة : الصابئة في الامس واليوم ومعتقدات الصابئة وكتبها المقدسة وعلماؤها ونبيها واستعرض المؤلف في الصفحات التي تلت هذه الاقسام بعض شعائر الصابئة كالصوم والصلاة و«المعمودية» والزواج والاعياد والموت ومراسم دفن الموتى .

ولو حاول المصنّف الاتيان ببعض المقارنات بين الاديان التي استحدث منها الصابئة معتقداتها لربما كان ابلغ تشويقاً لقرائه كما فعل من وقت الى آخر بدون تعليق مخطئ .

ولا يسعنا الا ان نشكره على دراسته ، تحدونا الرغبة الى ابراز مثل هذه المصنفات التاريخية باخلاص بعيد عن التحيز وبصورة موضوعية علمية نشتى المعتقدات .

ذكريات

بقلم لطفي بك الحفار

مجلدان ، نشرها وجيه بيضون ١٩٥٤ ، دمشق ، ٢٩٥–٣٩٩ صفحة قطع كبير

هي خمسون سنة يقضيها في حياة عملية في مختلف المضامير القومية والوطنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وها هي ذي بين ايدينا مجموعة الخطب

والمقالات التي القاها السيد لطفي الحفار ونشرها في مختلف الصحف وهي تعطينا فكرة ضئيلة عما بذله رجل الدولة من نشاط عظيم في سبيل مصلحة بلاده بدون ان ينشد مكافأة سوى ارتياح وجدانه الى الجهد الذي قام به بملء ارادته وبنفس سخية لخدمة الصالح العام .

وان وجه لطفي الحفار لمن احب الوجوه فهو الذي كان زعيماً بما لهذه الكلمة من معنى فقد اوتي بعد النظر وهو نظم ويأمر. وكان محبوباً ومتبوعاً وحقق حاجات بلاده وحرص على حلها على خير ما يمكن ودرب الكثيرين من اولي النيات الطيبة الخائفة الوجلة وحملهم على ان يتأثروا خطاه المنتجة في سبيل الدولة.

أهو الزعيم؟ فقد كان لطفي الحفار زعيماً ومفكراً جعل دأبه التفكير قبل الكلام ، فان الحوادث التي مرّ بها قد تطلبت منه تفكيراً ناضجاً وعملاً شاقاً يشكر عليه؛ وها هي ذي خطبه في شتى الموضوعات تعكس فكر من وقفه بنفسه واقتنع بما يقوله وفكر المقتنع بدوره كهادٍ ومدرب عليه ان ينير معالم طريق حافل بالمكائد امام رفاقه في الجهاد فكان لا بدّ له قبل كل امر من ان يفكر .

ونحن نشكر الناشر الذي لم يخفِ اعجابه واخلاصه بشخص لطفي الحفار الذي يستحق ذلك كل الاستحقاق .

في قصور الخلفاء العباسيين

بقلم الدكتور احمد شلبي

القاهرة ١٩٥٤ ، ٣٤٤ صفحة – قطع كبير

ليست المصنفات التي تبحث العهود العباسية بنادرة كما توضح ذلك كل الايضاح اسماء الكتب التي استشهد بها المؤلف بيد انه اذا وجدنا دراسات تاريخية لعهد ازدهار الثقافة والحياة الاجتماعية في العصور العباسية فاننا لا نعثر على دراسة نفسية تبين بعض اوضاع الخلفاء ورجال حاشيتهم او اوضاع الادب وان الولوج في نفسية عصر من العصور ومحاولة التحقيق عن العوامل التي افضت الى ازدهار الناحية الفلانية او الناحية الفلانية الاخرى فانها يوضحان سبب قيام وضع من تلك الاوضاع وانها الرغبة في حمل النفس على تكلفها الجهد ولكنهما يؤديان الى ادراك الاحداث التاريخية ادراكاً اتمّ .

ولقد درس مؤلف هذا الكتاب الذي لم يتفرّد بطابعه تفرّدًا كبيرًا في فصوله الاربعة البيّنة العامة التي اتسع فيها تاريخ العهد العباسي ودرس المؤامرات التي حيكت في قصور الخلفاء. وما مثّله فيهـا من دور الربيع بن يونس وابنه واخيرًا جاء بدراسة نفسية لذاك العهد فكان هذا الفصل الـدراسة الوحيدة الاشد تفرّدًا بطابعها والدراسة العميقة التي ادّت بالمؤلف الى توكيد نفوذ الربيع وابنه نفوذًا خارقًا للعادة ليحطم الامبراطورية ويسبّب اهلاك عـدد كبير من معاصريه الذي كان يوجس من نفوذهم شرًّا .

ولئن كان هذا المصنف غير متفرد تفرّدًا كبيرًا بجدّة موضوعاته فانه لا يخلو من ذكر البواعث الاساسية التي جرّأت الكاتب على العودة الى مصادرهـا الاولية مستوحيًا منها .

وجدير ان يُحتذى بهذه الدراسة من وجهات نظر عدّة ، فاننا شبعنا من دراسات تاريخ تلك العصور الاسلامية دراسات تذكر لنـا الحوادث ليس الّا فمن الواجب ان يجدد بعض التجديد الذين يودّون الكتابة في هذا التاريخ وان ينصرفوا الى الناحية النفسية ، فان التقدم العلمي في ايامنا سيخولنـا الانصراف الى دراسة الماضي دراسة معمّقة وجذابة . ا. ع. خ.

شرح لزوم ما لا يلزم لابي العلاء المعري

بقلم الدكتور طه حسين وابراهيم الانباري

الجزء الاول – مطبعة دار المعارف – ٣٩٠ صفحة ، قطع كبير

انه لعمل جبّار التعليق على كتاب ابي العلاء المعري الكبير هذا ، إنه لعمل طويل وشاق لانه عندما يخيّل الينا اننا عثرنا على المعنى الحقيقي لاحد اللزوميات نصادف عقبات لغوية كبيرة جدًا بيد ان الدكتور طه حسين قد المع في نهاية المقدمة التي مهّد بها لهذه الطبعة الى ان التفسير المسهب لشعر ابي العلاء المعري والمسهب احيانًا بدون جدوى انه ليس من وضعه بل هو من تفسير ابراهيم الانباري غير انه يتحمل معه كل تبعة ، اجل انه لمَأتى جميل ان تساهم طائفة من الزملاء في احد الاعمال وان يغمر واحدهم اسم زميله بما له من شهرة كبيرة لكنّ ذلك لا يحول دون النقدة ليلقوا نظرة جدّية على مجموعة الكتاب نظرة متواصلة .

واذا ما قلّبنا صفحات هذا الشرح الطويل لهذه الطبعة نرى ان الرغبة تحدونا الى تدوين جميع ملحوظات الشارح التي يقتضي لها بدورها شرح او تصحيح مما يفضي بنا على هذه الشاكلة ربما الى كتابة مجلد برأسه لكن هدفنا لا يتوخى هذا الامر وان كان في الكتاب بعض الامور الشيّقة ولذلك سنأتي ببعض الملحوظات فقط .

راجع في الصفحة ٣٥ « كلمة القلوص » : فهل كانت الضرورة تقتضي كل هذا الشرح المعقد الصعب لامر سهل جد السهولة .

وانظر في الصفحة ٥٠ كلمة إضم : فيفسرهـا : ماء بين فلة واليامة ان المؤلف ليس لديه شعور بالمسافة وان كلمة بين هي غامضة كل الغموض لانه لاجتياز المسافة بين فلة واليامة لا بد من ايام عدة .

وراجع في الصفحة ٧٠ حيث رأى الشارح كلمة النُّوَب هي جمع نادر لنائبة مع كونها هي الجمع العادي لنوبة . وارجع الى الصفحة ٩٠ فلماذا خصَّ الشارح كلمة السُّوَّام بالجمال وهي تنطبق على جميع ضروب الحيوان .

وهناك اغلاط عدة تنبغي الاشارة اليها وجملة ايضاحات لا بد منها ، فراجع ايضاً الصفحة ٢٢٦ ترَ الشعر التالي :

وتختلف الانسُ في شأنها وابعدَ بن باع ثمن شرى

فان الها. في شأنها تعود الى الانس لا للحياة كما يقول الشارح ومعناه أن للناس شؤونهم .

ويسعنا ان نشير الى عدة فقرات اخرى كان على الشارح ان يكون اشد انتباهاً فيها لشروحه اللغوية ، واننا لنأمل ان يتحفنا الكاتب الثاني وطريقة فضلى في التحليل والشرح . ا. ع. خ.

تاريخ الادب في ايران من الفردوسي الى السعدي

بقلم ادوار جرانفيل براون

نقله الى العربية الدكتور ابراهيم امين الشواربي ، ١٩٥٤ ، مطبعة جامعة كمبردج

٧٥٠ صفحة ، قطع كبير

لا نستطيع في البدء الا تهنئة المترجم على جرأته وصيابة فكرته لترجمة

هذه الموسوعة من الادب الفارسي التي لا تحتاج قيمتها الى التعريف بها لان السنوات الطويلة التي استغرقها المؤلف في وضع هذا السفر الكبير والدقة التي تنم عنها جميع صفحاتها والادباء الزاخرة معارفهم الذين درس حياتهم واعطى فكرة عن مؤلفاتهم والمقارنات التي اقامها بين بعض مميزات اولئك الادباء المختلفة كل ذلك قد جعل قيمة جديرة بالتقدير لهذه الدراسة .

واذ استغرق المؤلف براون سنين طويلة في دراسة اللغة الفارسية التي عكف على اقتباسها منذ حداثته فذلك ما يفيد انه عرف ان يلج في اعماق الادباء وان يحيا معهم وان يستنبط من وراء مآثرهم ولا سيما من وراء قصائدهم الروح التي اوحتها اليهم ، وعلى الجملة اننا لا نستشف من الفصول التسعة التي ينقسم اليها الكتاب المدارف الواسعة جدّ الاتساع فقط بل نزعته الى استجلاء اسرار الادباء الذين كانوا موضوع دراسته .

ولئن جئنا اتفاقاً على ذكر « تقديره لرباعيات الخيام » في فصله الرابع « ودراسته للعطار » في فصله التاسع وعلى غير ذلك من البحوث فاننا لنرى من خلالها نفس المؤلف براون ذاتها .

وتشير الاحكام التي حكم بها المؤلف على كل من هؤلاء الادباء الى معرفته العميقة بهم ، وربما وددنا لو كان استزاد من تقديراته لهم لنتمكن من مواصلة الدراسات والبحوث بدون ان نخشى زلة القدم ، اما اذا رغبنا الى المؤلف الذي اتخذ على عاتقه الخوض في هذا البحث الواسع في الادب الفارسي ان يذكر لنا المخطوطات المهمة التي لم تطبع فلكون طبعها يؤدي الى اسداء خدمات جلى لتقدم العلم .

ونحن لا نضمر للمؤلف المآخذ عليه وقد كان بمقدوره انجاز كتابه من هذه الناحية وانما نرغب اليه اذا ما اراد اعادة طبعه ان يكمله في هذا الاتجاه وان لم يستطع فليتفضل وهو الاختصاصي بالادب الايراني ان يضاعف معلوماتنا بصدد المخطوطات التي لم تطبع بعد ولا سيما مخطوطات كبار المؤلفين .

ا . ع . خ .

خراجات الفكين والوجه والعنق ذات المنشأ السني

بقلم الدكتور جورج ا. لقيس

دار المكشوف ، بيروت — ١٩٥٤ ، ١٥٢ صفحة ، قطع صغير

ليست اطروحة الطبيب جورج لقيس لاحراز الدكتوره والتي تبحث في خراجات الفكين والفم والعنق (خراجات الفكين) كتاباً مفيداً من الوجهة الطبية العامة فقط بل هي مفيدة من الناحية اللغوية ايضاً .

... ويطيب لي ان الفت النظر الى هذا الامر ولا سيما وقد غدت النزعة القائمة اليوم ميالة الى البحث عن المخطوطات القديمة التي تعنى بالشؤون الطبية لا ليعودوا الى التفتيش عما كان القدماء يستخدمونه من ادوية لمعالجة الامراض المختلفة بل لايجاد العبارات التي كانوا يستعملونها في الشأن الفلاني او الشأن الآخر.

... ولا سبيل للريب في ان الدكتور لقيس الذي ذيّل اطروحته بثبت لاهم العبارات مع ترجمتها قد ادّى خدمة جلى للغة الطب الفنية .

ونحن لا يسعنا الا شكر دار المكشوف على اتحافنا بمثل هذه الدراسات التي تستوجب التقدير ، كما اننا كنا نودّ لو ان المؤلف الحق بكتابه فهرس مواده

ا. ع. خ

الدوحة العمشيتية

بقلم اديب بك لحود

تاريخ افراد عيال عمشيت الثلاث عبيد وكلاب كرم — بيروت ١٩٥٥ ، ٤١٤ صفحة ، قطع كبير

ما تاريخ امة من الامم الا تاريخ العيال التي تكونها على ممر القرون والاجيال ، فقد اتفق لبعضهم ان وضع تاريخ عيال بعض المناطق فكان توفيقهم في ذلك متبايناً ، فمنذ ثلاث سنين نشر المأسوف عليه الاب بشعلاني نهجاً لدراسة العيال المرتبط اسمها باسم لبنان ارتباطاً وثيقاً لكن المنية عاجلته ، اما الآن فها هوذا اديب بك لحود يسد هذه الثلمة ويدرس تاريخ منطقة عمشيت بعيالها الثلاث : آل عبيد وآل الكلاب وآل كرم دراسة مستوفاة ملقياً نظرة عامة على هذه المنطقة من الوجهتين الجغرافية والتاريخية فرافقه التوفيق بان اوضح

فكرة عامة عن المنطقة التي بحث تاريخها في عدد قليل من الصفحات .

وسنعود الى هذه الدراسة والى ما شاكلها من دراسات لنجد آثار الماضي ومخلفاته . ا. ع. خ

Guglielmo de Vries s. j. — *Oriente cristiano ieri e oggi* — *Edizione della Civiltà Cattolica* — *s. d.* 400 pp.

انه الكتاب الذي لخص فيه المؤلف تاريخ الطوائف فرغب فيه مؤلفه ان يعطي في صفحات خاطفة مجموعة من المعلومات التاريخية واللاهوتية حول الطوائف الشرقية المتعددة واننا سنقع في هذه الصفحات على اقوال لا بد من العودة جدياً الى اصلاح خطاها لانها احكام متسرعة كما اننا لا نقوى على كتمان اسفنا حول بعض اراء اخرى سريعة تحدث فيها المؤلف مرتين على الموارنة استند في اولها الى جرمانوس القسطنطيني والى شابو (عدو الموارنة الالد) ويؤكد ان الموارنة قد ابتعدوا عن الكنيسة الكاثوليكية ليعود من ثم عن رأيه فيقول : ربما كانت « هرطقتهم » مادية فقط. اما في الفقرة الثانية فقد ايد المؤلف قوله بان « هرطقة » الموارنة هي حادث تاريخي ثابت .

فكيف اتفق للمؤلف ان لا يشير الى المستندات الرومانية مستندات الكنيسة التي تحفظ ذكر انشقاق الموارنة وارتدادهم وهي المستندات التي لا يمكن ان تطمس ، فهل صعب عليه كل الصعوبة ان يعود الى هذه المستندات ، ولئن اكد الكاتب ان الموارنة قد ابتعدوا « مع بطريركهم واساقفتهم عن رومة وانهم قد عادوا اليها أفليس لهذا الامر اهمية كافية لكي تحتفظ الكنيسة الرومانية القابضة على زمام الحقيقة بذكره . ومن هو غليوم الصوري وما هي اهميته ليستند اليه المؤلف ويقول ان انشقاق الموارنة هو امر واقعي ، لقد ذون المؤلف واقعاً طبعاً فما هو اذاً هذا الواقع ؟ وما هي قيمة رجوع المؤلف عن رأيه اذا كنا نعلم ان رومة تسجل الحوادث الدينية بكل اهتمام وعناية . اما اذا تساءل في الفقرة الثالثة عندما يتحدث عن لبنان ليقول ان عدد سكانه لا يبلغ المليون وان سورية لا يناهز عدد سكانها الثلاثة ملايين فلست ادري الى اية احصاءات قد استند لان لبنان يربو عدد سكانه عن المليون وسورية على الثلاثة ملايين .

ولقد رغبت في الوقوف عند هذه النقاط لا لاقلل من قيمة هـذا المصنف المفيد من نواح اخرى بل لالفت الانتباه الى السرعة التي وضعه بها صاحبه.

ولقد وقفنا على بعض الامور غير الصحيحة بين جملة احكامه الاكيـدة المدعمة بالحجج ومنها ما هو له اهميته .

ولا شك في ان هذا الكتاب هو عرض لنظرة عامـة كان من الواجب التعمق فيها بالمراجع التي جاء على ذكرها في آخر كل فصل من فصوله ا.ع.خ

S. D. Goitein : *Jews and Arabs, their contacts through the ages*. *Schocken Books, N. Y.* — 1955, XIII — 257 pp.

هو مصنف يتابع بحث علاقـات اليهود بالعرب على ممر التاريخ في شتى المضامير الثقافية والاجتماعية والفكرية .

ولا ريب في ان وضع هذا الكتاب قد اقتضى صاحبه الكثير من الجلد والبحث . اما ما ساورني من خوف عندما شرعت بمطالعته فقد تجلى امامي في محله ، لان المؤلف على رغم كونه من المستشرقين اللامعين ومن اساتذة الجامعة العبرية في القدس لم يكن بمقدوره مع انه من العلماء ان يتخلى عن فكرته الحزبية كما يتضح ذلك صراحة من فصله الاول : « اسطورة العرق السامي الدينية » . اما الفصول الاخرى التي تعرّف ما تمثله « التقاليد اليهودية في الاسلام ووضع اليهود الحالي المشروع» فاذا كانت اشد موضوعية فانها لم تدع مجالاً من وقت الى آخر الّا لاظهار حدّة التحيّز ، وفي رأيي ان الفصول التي عالجت الشعر والتصوّف والادب الشعبي والفن هي اهم فصول الكتاب .

ومن الواضح انه من الصعب الاقلاع عن التحيز اذا ما كتب المرء تحت تأثير الحوادث ، هذا هو كتاب السيد غواتين (Goitein) الذي نثني عليه لما جعل لمستنداته من قوة ، وما ذلك الّا عن عقيـدة بيد اننا كنا نودّ ان يكون اشد هدوءاً .

ا. ع. خ